ظاهرة التأليف الموسوعى فى العصر المملوكى فى مصر

من منظور حضارى أدبى

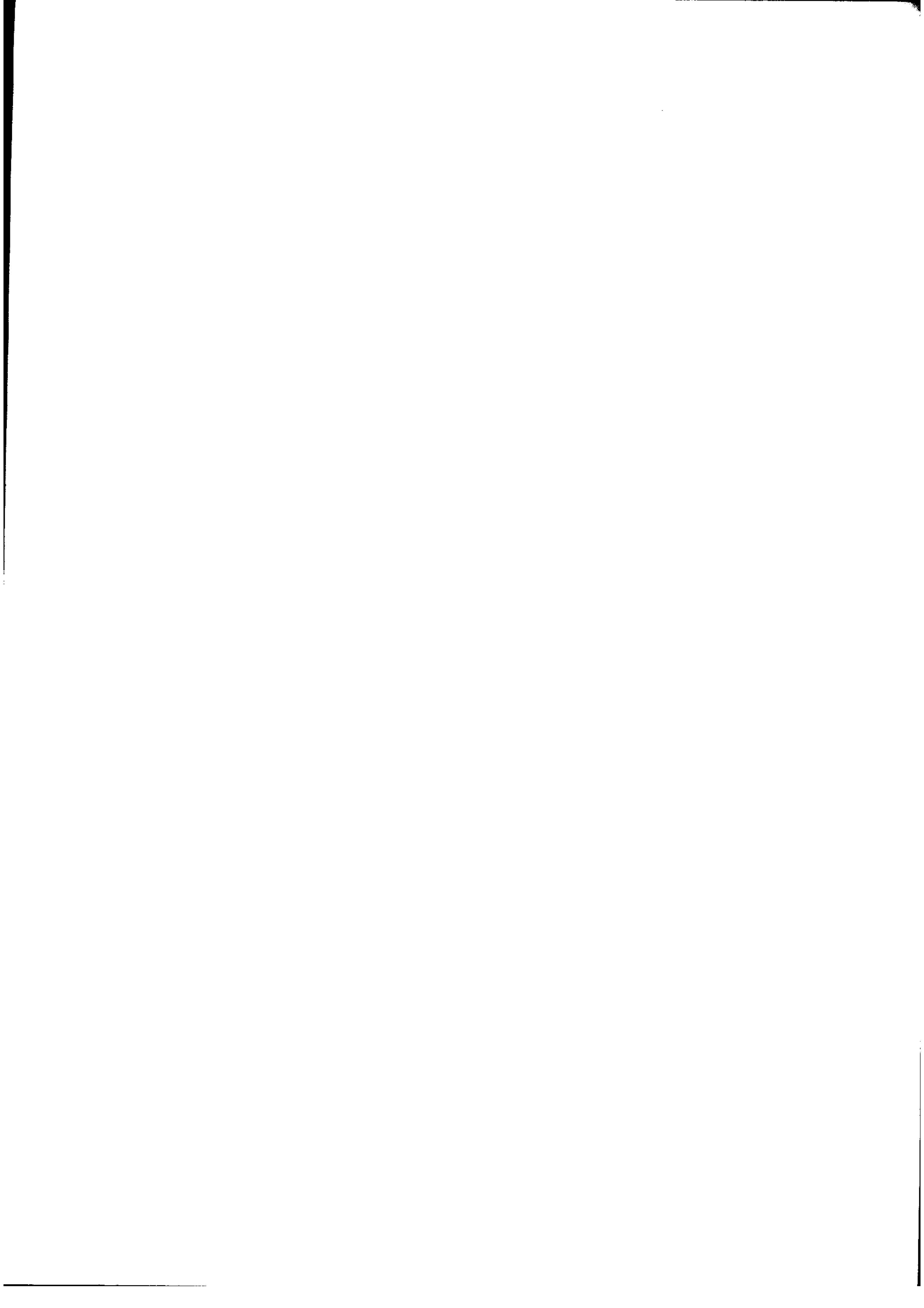
د. عوض الغبارى
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾

صدق الله العظيم

(٣٢ / البقرة)



للعصر المملوكى، من الناحية التاريخية والسياسية، سـلبياته وإيجابياته، وأثره البالغ فى مجريات الحياة، بكافة جوانبها، فـى مصر.

وسوف أحاول، فى هذا البحث، أن ألتزم منهجاً أختار، مـن خلاله، الدلالات الهامة لهذا العصر مما يتعلق بموضـوع هـذا البحث دون محاولة لتكرار دراسته دراسة تاريخية زخرت بـها كتب التاريخ القديمة، والدراسات التاريخية المعاصرة، إذ ليـس من المعقول أنْ يُبْدِئ كل باحث، فى موضوع من موضوعـات عصر تاريخى، ويعيد، فى نفس الإطار الذى تناوله مَنْ سـبقه دون هدف جديد، أو تحديد لمدلولات يركز عليها البـاحث فـى تاريخ العصر السياسى لخدمة هدف بحثه الخاص، ودعم رؤيتـه بدلالات هذا العصر الذى يدرسه، فيفيد مـن هـذه الـدلالات، ويعّمق بحثه مستنداً إليها، ويخرج من هذه الحلقة المفرغة التـى

تجعل أى باحث لأية قضية فى العصر المملوكى، مثــلاً، يبــدأ وينتهى من نفس النقطة التى قدمتها الكتب والدراسات التاريخيــة السابقة متعلقة بأحداث العصر، وتاريخ حكامه، إلى غير ذلـــك مما يت٧كرر فى كل بحث، على اختلافـــه، دون اســتراتيجية محددة تحاول أن تربط موضوع البحث الخاص بما يتعلق به، أو يدل عليه من أحداث التاريخ العام.

ولذلك فإننى سأحاول أن أتناول من العصر المملوكـــى مــا يتعلق بمعطيات هذا البحث الذى يحاول أن يضئ بعض جوانـب هذا العصر فى مصر فى سياقه الحضارى الثقافى العلمى، ودور علمائه فى الإسهام الكبير فى حركة الحضارة والثقافة العربيــة الإسلامية، وعلاقة إنجازهم الثقافى والفكرى فى مصر بمنظومة الثقافة العربية عموماً، وتناغم هذا الإنجاز المصرى فى العصـر المملوكى مع غيره من الإنجاز فى مصر على مــر العصــور الإسلامية السابقة على هذا العصر خصوصاً، ممَّا قد يدفع عنــه بعض ما اتُّهم به، ظلماً، من أنَّه عصــر التخلــف والانحطــاط العلمى والأدبى. وربما يساعد هذا التحديد لهدف هذا البحث فــى الوقوف على قضية محددة من قضايا العصــر المملوكــى، لأنَّ مجالات دراسته كثيرة ومتشعبة، وهى، مع ذلك، متكررة فـــى

معظم ما سبق من دراسات.

وأهم ما يتعلق بالعصر المملوكى من جوانب دالة، فى الإطار الذى أشرنا إليه أنَّه عصر التأليف الموسوعى فى كل مجـــالات المعرفة وفنون الكتابة. وقد ارتبطت هـــذه الظـــاهرة بســـياقات حضارية وتاريخية لمصر الإسلامية عبر عصورها.

أمَّا العصر المملوكى من الناحية التاريخية والسياســـية فلـــه سلبياته وإيجابياته التى يمكن الوقوف عليها من خلال الكتب التى أَرَّخَتْ لهذا العصر. ففى عصر المماليك ازدهرت كتابة التـــاريخ العام والخاص، وتاريخ التراجم والسير(١).

وقد أشار عبد اللطيف حمزة إلى عناية مؤرخى مصر بكتابة التاريخ منذ أصبحت مصر مركزا للعالم الإسلامى خلفا لبغـــداد، وقد ربط بين ذلك وبين الشخصية المصرية التى صهرتها محنة الحروب الصليبية والمغولية، فاستحقت، وقـــد حققـــت المجـــد التاريخى، ورفع انتصارها فى هذه الحروب من شأن شخصيتها، زعامة العالم العربى الإسلامى(٢). وقد ربط محمد عبدالله عنـــان

---

(١) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، الشام، دار المعارف، د.ت، ١٥٤.

(٢) عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكـــى الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٩، ص٢٣، ٢٤.

بين ازدهار الحياة الفكرية والأدبية فى مصر الإسلامية فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين وبين النهضة الفكرية ممثلة فى التأليف الموسوعى الذى جعل العصر المملوكى هو عصر الموسوعات العلمية والأدبية الكبرى، وقد شغل التاريخ المصرى جانباً مهماً من هذه الكتب الموسوعية العظيمة كنهاية الأرب للنويرى (ولد حوالى ٦٦٠هـ وتوفى سنة ٧٣٢هـ)، وهو "موسوعة ضخمة جمعت طائفة عظيمة من المواد والمعارف الأدبية والتاريخية الحافلة"[١]. ويؤرِّخ النويرى لمصر المملوكية حتى سنة ٧٣١هـ فى هذه الموسوعة التى تتبوَّأ مقاماً رفيعاً بين المراجع التاريخية الكبرى[٢]، فضلاً عن قيمتها الأدبية والفكرية الرفيعة كما سنبيِّن بعد ذلك. وقد رأى عنان أن التاريخ يشغل فى موسوعة النويرى أكبر أقسامها، وأنَّ منهجه التاريخى فيها قد امتاز بالتنظيم وسلاسة العرض التاريخى[٣].

ويجعل محمد زغلول سلاَّم الاهتمام بالتاريخ فى العصر المملوكى فى مصر انعكاساً لاعتبارات فى المجتمع الإسلامى

---

(١) محمد عبد الله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ومصادر التاريخ المصرى، مؤسسة مختار، القاهرة، د.ت، ص٦٣ وراجع، كذلك ص ٧٦.

(٢) المرجع السابق، ٦٦.

(٣) المرجع السابق، ٦٧.

أهمها استخلاص العبرة من وقائع التاريخ [ويتأكَّد هذا المعنـــى في تسمية ابن خلدون لكتابه المشهور في التاريخ بكتاب "العـــبر وديوان المبتدأ والخبر" وفي خطط المقريزي المسماة "المواعــظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"][1].

وكذلك تكمن أهمية التاريخ في اتصالـــه بـــالدين وعرضـــه لقصص الأنبياء وغير ذلك مما يتصل بعلوم الدين والشرع[2].

ويعد المقريزي (٧٦٦- ٨٤٥هـ) أهم مؤرخ اشتغل بتـأريخ النظم السياسية والاجتماعية في الآداب التاريخية العربية، حيـث عنى بتدوين تاريخ مصر الاجتماعي، متنكباً الطريقة التقليديـــة للمؤرخين الذين يسردون الأحداث التاريخية المجردة دون تحليل ونقد لمغزاها، أو وقوف علـــى طبـــائع الشـــعوب، وعاداتـــهم وتقاليدهم.

لقد ولد المقريزي وعاش في القاهرة، وقد صوَّر تاريخ مصر تصويراً حافلاً بالجوانب الاجتماعية من هذا التاريخ[3].

---

(١) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، دولة الشراكسة، الجـــزء الرابـــع، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص٢١١.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) محمد عبد الله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ٨٥-٨٧.

والمقريزى، ومن بعده ابن إياس، صورة معبرة أوضح تعبير عن أهم ما يميز المؤرخين المصريين من ربطهم بين أحـــداث التاريخ المصرى وبين ظروف الحيـــاة الاجتماعيـــة للشـــعب المصرى، حيث تنعكس فى كتبهم التاريخية صور الحياة بمصر بتاريخها الفكرى والسياسى والاجتماعى والروحى والحضـارى، وفى خطط المقريزى أصبح التاريخ دراسة اجتماعيـــة وعقليـــة وسياسية[1].

لقد كان شغف المقريزى بتأريخ مصر فى كتابه (الخطـــط) تجسيداً لحبه لمصر التى يقول عنها "وكانت مصر هى مســـقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى... فلا تهوى الأنفـــس غيـــر ذكـــره، لازلت مذ شدوت العلم.... أرغب فى معرفة أخبارها، وأحـــب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبـــان عن سكان ديارها"[2].

والخطط أشهر آثار المقريزى وهو "أثر فريد فـــى نوعـــه،

---

(١) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ١٥٧.

(٢) المقريزى (تقى الدين أحمد بن علـــى)، الخطـــط المقريزيـــة، المســـماة، بـــالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الآداب، القـــاهرة، جـــ١، د.ت ، ص٢، ٣. وراجع محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى، جـــ٤، ٢٢٣-٢٢٤.

طريف فى موضوعه، غزير فى مادته... ونستطيع أن نصفه بتاريخ مصر القاهرة ومجتمعاتها أيام الدول الإسلامية"[1]. لقد رسم المقريزى فى خططه صورة تفصيلية لمصر - القاهرة تاريخاً وعمراناً وحضارة، هندسة وعمارة إسلامية فى مساجدها الشامخة، وآثارها المَدنيَّة الإسلامية، ومعالمها الجغرافية، وخططها وشوارعها ومدنها وقراها وكل شبر فيها "معرض بديع لتاريخ مصر الاجتماعى، وأحوال المجتمع المصرى، وظواهره النفسية والأخلاقية، وحياته العامة"[2]. والمقريزى، بلا ريب، أعظم مؤرخى مصر [وأغزرهم مادة، وأقواهم عرضاً، وأوفرهم جلداً ومثابرة فى الاستقصاء. فهذه المَدينَّة العظيمة "مصر القاهرة"، وخططها القديمة، وتطوراتها الجغرافية العمرانية، وأحياؤها وآثارها، ومساجدها ومدارسها، وقصورها ورياضها، وكل ما احتوت من بذخ وبهاء وفن، تشغل فراغاً عظيماً فى "الخطط"][3].

لقد بلغ من براعة وصف المقريزى للتراث الحضارى والفنى والمعمارى لمصر الإسلامية، وتميزه فى تدوين تاريخ مصر

---

(١) محمد عبدالله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ٩٠.

(٢) المرجع السابق، ٩٤.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى أن قرنه محمد عبدالله عنان بأكبر واعظم مؤرخى العرب فى عصره وهو ابن خلدون.[1] والحق أنّ المقريزى فى اهتمامه بحياة المصريين، وتصويره لعاداتهم وتقاليدهم وطبقاتهم الاجتماعية، وحياتهم الخاصة، وكذلك فى ميله إلى الكتابة التاريخية الموسوعية، وله مؤلفات أخرى كثيرة وغزيرة أهمها "السلوك لمعرفة دول الملوك" وقد أرّخ فيه لدول المماليك فى مصر، وبلغت مؤلفاته – كما ذكر معاصره السخاوى – أكثر من مائتى مجلد[2]، وكذلك فإنه فى عرضه للتاريخ بأسلوب أدبى، نقول هو فى ذلك كله صورة رائعة للمؤرخين المصريين الذين يمكن عن طريق موسوعاتهم التاريخية الأدبية استشفاف روح العصر الذى عايشوه وصوروه أبدع تصوير[3].

(١) راجع تفصيل هذه الفكرة نفس المرجع السابق ٩٥-٩٦.

(٢) السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت ، د.ت، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص٢٣ حيث يقول : "وقد قرأت بخطه أنّ تصانيفه زادت على مائتى مجلدة كبار".

(٣) للتفصيل راجع محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، المجلد الثالث، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٤٩، وقد عدت مؤلفات المقريزى التاريخية من أهم المراجع فى تاريخ مصر، وقد نذكر بعض مؤلفاته، وتنوع موضوعاتها، وقد درس سليم منهج المقريزى فى كتابه (الخطط)، عارضاً لأهم أقسام هذا الكتاب، ولبعض كتبه الهامة الأخرى، مبيّنا اهتمام المقريزى بالأدب،

وأهم هؤلاء المؤرخين المصريين الذين سجلوا نبض الحيــاة المصرية فى كتابتهم التاريخية ابن إياس (٨٥٢-٩٣٠هــ).

يصوِّر محمود رزق سليم أثر ابن إياس فى نفسه، وقد عــزم على تأليف موسوعته الرائدة عن العصــر المملوكــى ونتاجــه العلمى والأدبى فيقول فى مقدمتها : [وقد أعجبت إعجاباً لا حــد له بكتاب تاريخ مصر لابن إياس، وهـــو المعــروف "ببدائــع الزهور فى وقائع الدهور" وشعرت حين قرأته أنَّ رجلاً مصرياً صميماً معاصراً شديد الصلة بى يحدثنى. وهـــو إلــى قَصِّــهِ الأحداث السياسية والتقلبات الإداريــة، لــه نقـدات عارضــة، وأوصاف اجتماعية قد يستطرد إليها فى هوادة ورفق بمناســبة، أو يفجأ القارئ بها، وكأنها غير مقصودة لذاتها، ولكنـــها تنبــه الذهن إلى كثير من خَفِيَّات الأحوال العامة، فتتأملــها وإذا بــك تشعر بجلالها وخطرها، وإذا بك بتتبع جزئياتـــها، تســتطيع أن تكوِّن فكرة، أو ترسم صورة، تُجَلِّــى فيــها حــالاً مــن تلــك الأحوال"][1]. وقد عدَّد محمود رزق سليم الكتب التاريخية التـــى استقلت بتأريخ مصر والقاهرة فجعل العصــر المملوكــى هــو العصر الذى يمكن القول "إنَّ فكرة الكتابة المستقلة عن تـــاريخ

ذاكراً نماذج لبعض كتابته الأدبية راجع التفاصيل من ص٣١٧-٣٣٤.

(١) المرجع السابق، المجلد الأول ، نُشر سنة ١٩٤٧، ص هــ .

مصر وقاهرتها قد اختمرت وتحورت إلى مشـــروعات تأليفيـــة ضخمة." (١)

وقد كان ابن إياس، الذى ولد وعاش فى القاهرة وتوفى بـــها، تتويجا لمسيرة المدرسة التاريخية المصرية الزاهرة، وقد عنيـت بتاريخ مصر، على الخصوص، إذ كان تاريخه سجلا دون فيـــه كثيرا من الحوادث الخاصة فضلا عـــن العامـــة(٢)، خصوصــا تأريخه لبداية الدولة العثمانية فى مصر، وقـــد عـــايش ســقوط وانهيار الدولة المملوكية. وكان تأريخه لهذا الحدث التـــاريخى الفاصل فى مصر من أهم ما ورد فى كتابه (بدائع الزهور فـــى وقائع الدهور). ففيه "تجد وثيقة فريدة، تكمل سلســـلة الوثـــائق المتوالية التى تركها لنا المقريزى، فابن تغرى بردى، فالسخاوى كل عن حوادث عصره، وبذا نستطيع أن نظفر بســـيرة قـــرن بأسره من تاريخ مصر، ترويه المشاهدة الشخصية. وهى مرحلة ذات أهمية وظواهر خاصة، لأنها تفصل بين مصــــر الظـــافرة المستقلة، وبين مصر المغلوبة المســـتعبدة. ومـــن المحقـــق أن حوادثها تنم عن كثـــير مـــن العوامـــل والظواهـــر السياســـية والاجتماعية والأخلاقية التى دفعت بمصر يومئذ إلـــى طريـــق

---

(١) المرجع السابق، المجلد الثالث ، ١٠٧.

(٢) محمد عبدالله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ١٥٥.

الانحلال، ومهدت إلى سقوطها فريسة هينة فى يد الظافر، وإلى استكانتها عصوراً طويلة تحت نيره المضطرب"[١]. وابن إيـــاس تلميذ لجلال الدين السيوطى (٨٤٩-٩١١هـ) والسيوطى عـــالم موسوعى يعد دائرة معارف العصر المملوكــــى، وهـــو إمـــام الحديث، وله مؤلفات جمة فى علومه وفى التفسير والفقه واللغـة والأدب، زخرت بها المكتبة العربية[٢].

وهو أيضاً مؤرخ مهم لعصره وما قبله من عصور تـــاريخ مصر، وكتابه "حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة" مـــن أهم الكتب التى سجلت التاريخ الحافل لمصر منذ الفتح العربـــى الإسلامى فى السنة العشرين للهجرة على يد عمرو بن العـــاص فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، إلى عصـــر السيوطى. وقد تناول السيوطى فى هذا الكتاب تـــاريخ مصـــر القديم والفتح العربى الإسلامى لها، وما صاحبـــه مـــن وقـــائع وأحداث.

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.وقد كان كتاب (بدائع الزهور) ســـجلاً حيـــاً لنبضـــات الشارع المصرى على زمن المماليك، وقد عاصر ابن إياس أواخره، وكانت عاميته فى هذا الكتاب صورة معبرة عن حياة الناس فى القاهرة، راجع محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى،ج٤، ص٢٧٣، ص٢٨٦.

(٢) قمت بدراسة حياته وأثره العلمى واللغوى والأدبى فى فصل من كتاب درســـت فيـــه مقاماته بعنوان "مقامات السيوطى : دراسة فى فن المقامة المصرية" وهو الآن قيـــد النشر.

وقد حفل هذا الكتاب بترجمات لمَنْ عاشوا فى مصر، علـــى مر تاريخها الزاهر، من أعلام كان لهم أكبر الأثر فـــى تـــاريخ مصر من الناحية الدينية والسياسية والعلميـــة والأدبيـــة. وقـــد عكست صفحات هذا الكتاب صوراً للحياة المصرية من عـــادات المصريين وتقاليدهم، خصوصاً أنّ السيوطى قـــد ألّـــف هـــذا الكتاب، كما كان شأنه مع سائر مؤلفاته، مسجلاً فيه، بعين العالم الناقد، ما وعته بصيرته النافذة من صور للحضـــارة العربيـــة الإسلامية فى مصر، نابضة بمعانى الحركة والحياة فى كثـــير مما يتعلق بهذه الحضارة المصرية فـــى عصورهـــا العربيـــة الإسلامية من نهضة ثقافية وأدبية وعلمية[١].

ويعد هذا الكتاب موسوعة جامعة ترجم فيها السيوطى لأعلام مصر من العلماء والمفكرين من القـــرن الأول الـــهجرى إلـــى أواخر القرن التاسع، وهو بذلك وثيقة فريدة تغطى ما أسهم بـــه رجالات مصر على اختلاف طبقاتهم من "الأئمـــة المجتـــهدين والحفاظ والمحدثين والفقهاء، إلى أئمة النحو والحكماء والأطبـاء والوعاظ والمؤرخين والشعراء والأدباء[٢]"

---

(١) راجع مقدمة محمد "أبو" الفضل إبراهيم محقق كتاب "حسن المحـــاضرة فـــى تـــاريخ مصر والقاهرة، " دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى، ط أولى، القـــاهرة، ١٩٦٧، الجزء الأول، ص٤.

(٢) محمد عبدالله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ١٤٧.

ولحسن المحاضرة، كذلك، قيمة أدبية هامة، فقد أورد السيوطى فيه كثيراً من النصوص الشعرية والنثرية التى يقل وجودها فى غيره من المراجع(١).

وعلى ذكر السيوطى يأتى السخاوى (شمس الدين، ٨٣١هـ-٩٠٢)، وقد كانت بينه وبين السيوطى مساجلات علمية، ومعارك فكرية من نوع ما يدور بين العلماء البارزين، ليس هذا مجالها الآن، وقد كان تاريخ السخاوى الشهير "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" ترجمة موسوعية لأعلام هذا العصر. وقد كان تلميذاً لابن حجر العسقلانى (٧٧٣-٨٥٢هـ) صاحب كتاب "الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة" وهو معجم كبير له قيمته التاريخية الهامة فى الترجمة لأعلام العلماء والملوك والأدباء سواء فى مصر أو فى غيرها من البلاد الإسلامية الأخرى، فضلاً عن كتابه "أنباء الغمر بأنباء العمر" الذى يعد مصدراً قيمًا من مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى الحقبة التى تناولها، وكتابه "رفع الإصر عن قضاة مصر"، وهو معجم لقضاة مصر الذين تولوا قضاءها منذ الفتح الإسلامى إلى آخر القرن الثامن الهجرى(٢).

---

(١) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ٣٧١.

(٢) محمد عبدالله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ١١٠-١١١.

وقد تأثر السخاوى بأستاذه ابن حجر الذى كان قطب العلماء والمحدثين فى مصر، بل فى العالم الإسلامى قاطبة. كان السخاوى محدثا مؤرخا لا يُجَارى، وكان "الضوء اللامع" أعظم آثاره وهو موسوعة حافلة بتراجم العلماء والأدباء والخلفاء فى القرن التاسع، وقد امتاز السخاوى فيه "بقوة فائقة فى التصوير ليس لها نظير فى التراجم الإسلامية"[1]. وقد استخدم السخاوى هذه القدرة التعبيرية الفائقة فى تجريح مَنْ ترجم لهم، ممَّا عكس أصداء المعارك الأدبية بينه وبين معاصريه وأهمهم السيوطى الذى نال الكثير من تجريح السخاوى، واتهامه بسرقة كتبه، مما حدا بالسيوطى إلى الرد عليه مخصصاً مقامة فى نقد تاريخه عنوانها "الكاوى على تاريخ السخاوى"[2]. ولكن هذه النزعة الهدامة فى تاريخ السخاوى لا تنفى أثره البالغ فى فن التراجم وقد تميز بالعرض التحليلى البارع، والنقد العلمى اللاذع، تَوَّجَهَا كتابه القيم "الإعلان بالتوبيخ لمَنْ أهل التاريخ" وقد كان رؤية نقدية لعلم التاريخ، وعرضاً ضافياً للمؤلفات التاريخية الإسلامية بصورها المتنوعة[3].

---

(١) المرجع السابق، ١٣٥ وراجع أيضاً، ١٣٢-١٣٤.

(٢) درست هذه المقامة بالتفصيل فى كتابى عن مقامات السيوطى.

(٣) محمد عبدالله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ١٣٦-١٣٨ . وراجع كذلك محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى، ج٤، ٢٤٥. وشوقى ضيف ، عصر الدول والإمارات، مصر ١٥٧، ١٥٨.

ويعد محمود رزق سليم كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغرى بردى (٨١٢-٨٧٤هـ) من خير الكتب في تاريخ مصر وأعلامها، وفي اهتمامه اهتماما خاصا بفيضان النيل[١]، وقد لقبه محمد عبدالله عنان بمؤرخ مصر ومؤرخ النيل[٢]، وعده حلقة مهمة في القرن التاسع الهجرى الذى وصفه بأنه كان عصرًا ذهبياً لتدوين تاريخ مصر القومي والإسلامي، وامتازت المدرسة التاريخية الزاهرة فيه بمصريتها الواضحة بنوع خاص، وقد تميز أقطابها بأنهم ولدوا وعاشوا بمصر، فتشربوا روحها، وصدروا عن حضارتها بدءاً بالمقريزى، وانتهاء بابن إياس، وقد وقف ابن تغرى بردى حياته على البحث في تاريخ مصر الإسلامية، واختص بالتأريخ لنيلها الذى نشأ على ضفافه، ووهبه موسوعته الكبرى (النجوم الزاهرة) التى عكست غزارة معرفته التاريخية، وثقافته المتنوعة[٣].

وقد كان هذا الكتاب النفيس تأريخاً لمصر منذ الفتح العربي حتى سنة ٨٧٢هـ، وهو تاريخ شامل أداره على السنوات،

---

(١) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ١٠٩.

(٢) محمد عبدالله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، ١١٤.

(٣) المرجع السابق، ١١٥-١١٨.

ذاكرا الوقائع السياسية الهامة التى وقعت كل سنة، وقد أضاف ابن تغرى بردى إلى جانب تأريخه لمصر، تأريخاً للدول العربية، ولأهم أمرائها وعلمائها وأدبائها مع ذكر كثير من الطرائف الأدبية والاجتماعية(١). ويفتتح ابن تغرى بردى هذه الموسوعة العظيمة مبيناً منهجه التاريخى بقوله "واستفتحته بفتح مصر،... وعلى أى وجه فتحت.... وأجمع فى ذلك أقوال مَنْ اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار،.... ثم أذكر مَنْ وليها من يوم فتحت، وما وقع فى دولته .... ثم أذكر أيضاً فى كل ترجمة ما أحدث صاحبها أيام ولايته من الأمور، وما جدده من القواعد والوظائف والولايات فى مدى الدهور. ولا أقتصر على ذلك بل استطرد إلى ذكر ما بُنى فيها من المبانى الزاهرة كالميادين والجوامع ومقياس النيل وعمارة القاهرة(٢)". وعلى ذلك فإنَّ النجوم الزاهرة تاريخ، ليس فقط، لوقائع وأيام ووفيات الملوك والأمراء، ولكنه، كذلك، تاريخ لمصر العمران و الحضارة، ومن قبل ذلك، مصر النيل. وهكذا مثل هذا الكتاب، وغيره، ما اتسمت به الكتابة فى العصر المملوكى من موسوعية حيث

---

(١) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ١٥٧-١٥٨.

(٢) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن)، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، د.ت، ج١، ص٢، ٣.

أفاض ابن تغرى بردى فى ذكر تاريخ مصر المستقلة خصوصاً الدولة الفاطمية، ثم عصره، على وجه أخص.

من مثل هذه الكتب التاريخية الموسوعية، وهى كثيرة، يمكن أن نربط تاريخ مصر بحضارتها العربية الإسلامية، وأن نحدد ما للعصر المملوكى من سلبيات وإيجابيات، وأن نضع ظاهرة التأليف الموسوعى فيه وضعها الصحيح، ظاهرة فكرية لها أبعادها التى تتصل بتاريخ الثقافة والحضارة العربية الإسلامية. ومن حيث الأبعاد السياسية للعصر المملوكى، بإيجابياتها وسلبياتها، فقد أشار محمود رزق سليم فى موسوعته الرائدة عن هذا العصر إلى أهم ما يتعلق بها[1].

ومن أهم سلبيات هذا العصر أنّ المماليك طبقة عسكرية أجنبية دخيلة على الشعب المصرى، ولاشك أنّ حكمهم لمصر،

---

(١) أجمل ذكرها فى المجلد الثانى ص ٢٧٤ ، نُشر سنة ١٩٤٧، فذكر أنْ أهم حسنات هذا العصر دفع التتار عن اقتحام الأراضى المصرية، ودفع الفرنجة عنها، والمحافظة على استقلال البلاد، ورصد الأوقاف الكثيرة على وجوه البر والإحسان، وتشجيع حركة إحياء العلوم والآداب. أما أهم سيئاته فهى، كما ذكرها، احتقار الشعب وإهمال حقوقه السياسية، وفداحة الضرائب المفروضة عليه، والجَور والعَسْف الذى نزل به، وكثرة الفتن الداخلية والغلاء. وقد فصل هذه الحسنات والسيئات مضيفاً إليها ما حدث فى العصر المملوكى من زلازل وأوبئة ونقص ماء النيل إلى ص ٣٦١. وكذلك تحدث عن التكوين الطبقى للمماليك، وانعزالهم عن الشعب المصرى، وتربيتهم العسكرية، ونظمهم الإدارية، المجلد الأول ، ٩٢ وما بعدها.

وقد امتد لما يقرب من ثلاثة قرون، [الدولة المملوكية الأولى، البحرية، من ٦٤٨هـ، حيث تولى عز الدين أيبك حكم مصر بعد الأيوبيين، وتسمى البحرية نسبة إلى النيل، الذى أحاط بمسكنهم فى جزيرة الروضة ، وتُسَمِّيه العامة فى مصر بالبحر، ثم الدولة المملوكية الثانية، البرجية، التى حكمت مصر منذ سنة ٧٨٤هـ، وأسسها السلطان برقوق، وتسمى بالبرجية نسبة إلى أبراج القلعة التى كانت مسكناً لمماليكها، وقد حكمت مصر إلى سقوط الدولة المملوكية سنة ٩٢٢هـ] لاشك أنَّ هذا العصر الطويل قد اتسم بالفتن والقلاقل والاضطرابات، وصراع المماليك على الحكم.

وقد لقى المصريون، تحت وطأة الحكم المملوكى، كثيراً من ألوان العنت والظلم والقهر بسبب هذه الاضطرابات السياسية. كما عانوا من كثرة الضرائب التى كان المماليك يفرضونها عليهم مما أثقل كاهلهم خصوصاً فى عصر الدولة المملوكية الثانية.

ولاشك، أيضاً أنَّ المماليك طبقة عسكرية خالصة، لا شأن لهم بنهوض البلاد حضارياً وثقافياً، وقد اضطلع بذلك الدور الحضارى أبناء الشعب المصرى من علماء وأدباء ومفكرين

أسهموا إسهاماً بارزاً، بما قدموه للثقافة العربية من زاد علمي وأدبي وفكري وثقافي، كان له أثره الكبير في الحفاظ على الشخصية العربية، والحضارة الإسلامية في مصر والعالم العربي الإسلامي من طوفان الغزو التتري البربري الذي اجتاح بغداد سنة ٦٥٦هـ، وقوَّض أركان الخلافة العباسية فيها، ودمَّر معالمها، وأحرق كتبها التي ضَمَّتْها مكتباتها العظيمة، وانتشر كالجراد الذي لا يبقي على أخضر ولا يابس[١].

ولولا بطولة الظاهر بيبرس (ت ٦٧٦هـ) الذي عدَّه المؤرخون المؤسس الحقيقي لدولة المماليك، كما جُعِلَ عصره، وقد ابتلي بمحنة الصليبيين والمغول، عصراً فاصلاً، كان الظاهر بيبرس فيه البطل المنقذ من هذه المحنة القاسية[٢]، نقول لولا دور الظاهر بيبرس وبطولته ودحره للمغول تحت إمرة السلطان قطز[٣] في عين جالوت (سنة ٦٥٨هـ)، بعد اجتياحهم

(١) لمزيد من التفاصيل التاريخية راجع سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط أولى، ١٩٦٥، ص ٢٧.

(٢) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص٨، وراجع، كذلك، ص١٣، ص٣٦، ص٣٧.

(٣) ترجم له ابن تغري بردي، راجع، جـ٧ من الطبعة السابق ذكرها، ص٧٢ وما بعدها وقد تولى سلطنة مصر سنة ٦٥٧هـ، مبيِّنا دوره في عين جالوت، وبلاءه فيها، وتحقيقه للنصر بفضل شجاعته، صـ٧٩، وقد قتل بعد توليه السلطنة بسنة واحدة فقط.

لبغداد بسنتين فقط، لضاعت معالم الحضارة العربية الإسلامية، ولضاع تراثها الذى حفظته مصر وأضافت إليه. وإنْ كان المماليك شرا على مصر، فإنّ دحرهم للتتار على يد الظاهر بيبرس كان نقطة تحول حاسمة فاصلة فى التاريخ العربى الإسلامى، وفى تاريخ مصر، من ثَّم [1]، إذ صارت مصر عاصمة العالم العربى الإسلامى، وقد خلفت بغداد، وأصبحت ملاذاً للعلماء والأدباء والمفكرين الذين وفدوا إليها من كل حدب وصوب، ووجدوا فى الحياة فيها ما شجعهم على إيجاد حركة أدبية وعلمية واسعة وأصيلة.

وقد أصبحت مصر، فى العصر المملوكى، ميداناً لنشاط علمى خصب بفضل الدور الذى تبوأته بعد سقوط بغداد، إذ غدت مَحَلَ سكن العلماء، ومَحَطَّ رحال الفضلاء، على حد تعبير السيوطى[2].

وكان دور المماليك، ممثلاً فى دور سلطان من أعظم سلاطينهم، فى الدولة المملوكية الأولى، وهو الظاهر بيبرس، ودحره للتتار، مماثلاً فى أهميته وفى حسمه التاريخى لدور

---

(١) سعيد عاشور، العصر المماليكى، ٣٢ وما بعدها.

(٢) حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٨٦. وراجع سعيد عاشور، العصر المماليكى، ٣٢٩.

البطل صلاح الدين الأيوبى فى دحره للصليبيين فى حطين (سنة ٥٨٣هـ).

وقد قضى الظاهر بيبرس، بعد أن ولى سلطنة مصر سنة تسع وخمسين وستمائة[1]، مدة حكمه فى حركة دائمة بين مصر والشام يحارب الصليبيين حيناً والمغول أحياناً حتى قال فيه أحد الشعراء :

يوما بمصر ويوما بالحجاز وبالشـــ

ـــام يوما ويوما فى قرى حلب

وقد كانت بطولته رمزا للكفاح ضد أعداء العروبة والإسلام مما خلد اسمه فى التاريخ، وجعله ممثلا للقوة الكبرى فى العالم الإسلامى[2]. لقد اشتهر الظاهر بيبرس بحبه للعدل وتشجيعه

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٠٠ وقد خصه ابن تغرى بردى بترجمة ضافية زادت عن مائة وخمسين صفحة ذكر فيها تاريخه قبل السلطنة وبعدها ذاكرا كل تفاصيل فتوحاته، وعده المؤسس الحقيقى للدولة المملوكية سياسيا وإداريا، وتتبع الوقائع والأحداث التى كانت فى عصره، وأحوال النيل، فى كل سنة من سنوات حكمه، ومن ولاهم من القضاة وغيرهم، وأهم من مات من رجالات مصر، وأهم ما أقامه بيبرس من منشآت وفى ذلك يقول : "وبنى فى أيامه بالديار المصرية ما لم يبن فى أيام الخلفاء المصريين، ولا ملوك بنى أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات" ج٧، ص١٩٦.

(٢) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ٦١، ١١٩. وقد تتبع سعيد عاشور جهاده ضد الصليبيين والمغول فى دراسة تاريخية ضافية ابتداء من ص ٦٠.

للعلماء، فضلاً عن كونه المؤسس الحقيقى لدولة المماليك، وعن أنَّه أهم واضع لأسسها الإدارية، ونظمها السياسية، وقد أجَلَّ الظاهر بيبرس العلماء، وولاهم وظائف الدولة الهامة كابن خلكان صاحب كتاب (وفيات الأعيان) الذى عينه قاضى قضاة دمشق، تقديراً لفضله وعلمه، وابن واصل صاحب كتاب (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) الذى اختاره السلطان بيبرس فى مهام السفارة، وابن عبد الظاهر، الكاتب الكبير الذى عينه كاتب سره بديوان الإنشاء، وقد برز فى عهد بيبرس كثير من الشعراء أهمهم البوصيرى صاحب البردة الشهيرة فى مدح الرسول -ص- وقد حظى أيضاً بعطف بيبرس الذى ولاه عدة مناصب هامة بالقاهرة وأقاليم مصر(١).

وقد قام بيبرس بإنشاء المدارس والمساجد والعمائر والجسور والقناطر بحيث كانت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك من أكبر مدن العالم وأكثرها سكاناً، وكان للمؤسسات الاجتماعية التى امتازت بها مصر المملوكية أهمية عظيمة(٢).

وكان للظاهر بيبرس دور كبير فى بناء هذه المنشآت

---

(١) المرجع السابق، ١٤٨-١٥٠.

(٢) المرجع السابق، ١٦٦.

المعمارية، والمؤسسات الاجتماعية فـــى العصـــر المملوكـــى، وأهمها المدرسة الظاهرية التى لهج الشعراء بذكرها، وأقام بـــها بيبرس مكتبة عظيمة، وألحق بها مكتبا لتعليم الأيتام، وأوقـــف للإنفاق عليها الأوقاف، وكانت من أجَلِّ مدارس القاهرة على حد تعبير المقريزى[1].

وقد قام على أمر هذه المؤسسات الخيرية التعليمية بمنشـــآتها المعمارية، نفر من السلاطين والحكام والأمـــراء والموســـرين، لأهداف خيرية، منفقين عليها من أوقاف بعض أملاك الدولـــة أو أملاكهم الخاصة، وقد رُتِّب لهذه المدارس مَنْ يقوم عليها مــــن المدرسين، الذين تجرى لهم الرواتب ويقومون بتدريس العلــــوم الدينية خاصة علوم القرآن والتفسير والحديث ثم الفقه والأصول وسائر العلوم التى تتصل بالدين والشرع[2].

وقد أفاضت كتب التاريخ والأدب الموسوعية من مثل بعـض ما ذكرنا فى بيان اهتمام سلاطين الممــــاليك بـــالتعليم والديـــن خصوصاً، وإكرامهم للصوفية ممثلاً فى الخانقاه البيبرسية التـــى

---

(١) الخطط، ج٤، ٢١٨، وراجع كذلك ٢١٦، ٢١٧. وحسن المحاضرة ، ج٢، ٢٧١.

(٢) محمد زغلول سلام، فى عرضه للحركة العلمية فى العصر المملوكـــى، فـــى كتـــاب الأدب فى العصر المملوكى، ج١، ط أولى، منشأة المعارف، الإســـكندرية، ١٩٩٤، ص ١٢٦، ١٣٩.

أقيمت لرعايتهم وإكرامهم تبجيلاً لهم، واستمراراً لرعاية صلاح الدين في العصر الأيوبي لهم، فهو أول من أقام الخوانق بمصر قائلاً عن الصوفية : "والله إني لا أرجو النصر إلاَّ بأولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم"[1]. كما كان اهتمام المماليك بالأدباء والعلماء، كذلك، استمراراً لاهتمام صلاح الدين الأيوبي، وخلفائه بهم، وقد قال : "لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل" في إشارة صادقة إلى تبجيله للعلماء والأدباء، واحترامه لهم، وتقديره لدورهم في بناء الدولة وإدارة الحكم. وقد صدق بعض سلاطين المماليك في الاهتمام بالدين وبالعلم وبالأدب، وكذلك في العناية بإقامة المستشفيات لعلاج المرضى بالمجان، وكفالة الأيتام وتعليمهم، وإنشاء السبل، وإلحاق كل ذلك بالمدارس، وتقديم غير ذلك من الخدمات التي تقدمها الدولة للناس، كالسلطان بيبرس الذي كان في سياسته هذه امتدادا لسياسة صلاح الدين الأيوبي، وقد ازدهرت في عصره العلوم والفنون والآداب، وكان القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني من الرموز الأدبية لهذا العصرالأيوبي، وكان لهما دور كبير في استعانة صلاح الدين الأيوبي بهما في إدارة شئون

---

(١) راجع عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، ص ١٠٦، ١٠٧.

الحكم تشجيعاً للعلماء والأدباء. وقد بنى صلاح الدين الأيوبي، كثيراً من المدارس أهمها المدرسة الناصرية ومدرسة للشافعية، ومدرسة للمالكية ومدارس أخرى بنيت بالقاهرة وجعلت الحركة العلمية والدينية السنية بها زاخرة نشيطة، وقد زخرت خطط المقريزى بذكر هذه المدارس[1]، وكذلك غير الخطط مما عكس بعض مظاهر النهضة العلمية والأدبية للبلاد فى هذا العصر الأيوبى الزاهر الذى اتبع سياسته بعض سلاطين المماليك إمَّا صدقا كالظاهر بيبرس وبعض سلاطين المماليك الآخرين، وإمَّا تظاهرًا بذلك، كبعض السلاطين الآخرين ممن انتهجوا هذه السياسة فى محاولة لتغطية سوء إدارتهم وفساد حكمهم وظلم سياستهم.

لقد كان الظاهر بيبرس مَثَلا صالحاً لسلاطين المماليك، وقد جاءت سيرته فى الأدب الشعبى لتصور ذلك السلطان فى الصورة التى أحب الشعب العربى أن يراه عليها[2]، فجعلت منه البطل المخلِّص، وكانت سيرته ممثلة للون من ألوان التأليف

---

(١) المرجع السابق، ١٥٨، ١٥٩، وراجع تفاصيل حديث المقريزى عن مدارس القاهرة. الخطط، جـ٤، ١٩١ وما بعدها.

(٢) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ص١٨٧، وقد رجع فى ذلك إلى عبد الحميد يونس فى كتابه : الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى.

الذى اتصل بتاريخ المماليك[1]، مـــن خـــلال ســـلطان وصفـــه المقريزى بأنه كان من خير ملوك الإسلام[2].

وقد خلفه من بعض السلاطين مَنْ سار على نهجه، وأكمـــل سيرته التاريخية العظيمة، ودوره الحضارى العمرانـــى الـــهام، وأثره الكبير فى تاريخ مصر الإسلامية فى العصر المملوكـــى. ويعد السلطان قلاوون الذى ولى حكم مصر من (٦٧٨ هـــ إلـى ٦٨٩) من أعظم سلاطين المماليك، كذلك، وقد حكم مصر هـــو وأسرته أكثر من مائة عام هى أهم مدة حكم فى عصر المماليك البحرية، وعَدَّه سعيد عاشور مثلاً فريداً لبقاء الحكم فـــى بيـــت واحد هذه المدة الطويلة من تاريخ المماليك فى مصر[3].

وقد أكمل السلطان قلاوون دور الظاهر بيبرس فى القضـــاء على جيوب الصليبيين والتتار. وقد كان للمماليك فـــى العصـــر الأيوبى، دور كبير فى دحر الصليبيين بالمنصورة، وأسر ملكهم لويس التاسع، وسجنه بدار ابن لقمان، واســـتمر دورهـــم فـــى العصر المملوكى حيث قضوا على خطرهم تماماً، إضافة إلـــى

---

(١) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ٤٨٧-٤٨٨.

(٢) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ٢٠٥.

(٣) سعيد عاشور، العصر المماليكى، ٩٩.

قضائهم على خطر التتار(١).

وكان السلطان قلاوون حلقة من حلقات هذا الدور الهام، أضاف إلى ذلك دوره فى حركة العمران وبناء المنشآت الخيرية، وأَجَلُّها المارستان المنصورى، وقد كان مدرسة طبية، ومستشفى عاما لكثير من الأمراض، وكان الفقراء يعالجون فيه بالمجان، وكذلك خلَّف قلاوون قبة عظيمة دُفِن فيها وبنى مسجداً مشهوراً(٢). وقد قرَّر زكى محمد حسن فى سفره العظيم "فنون الإسلام" أنَّ قبة قلاوون ومدرسته ومارستانه من مجموعات العمائر المملوكية العظيمة الشأن، وقد أبان ما فيها من الأشكال الهندسية الدقيقة خصوصاً المآذن والقباب، وتعد قبة قلاوون آية من آيات الفن الإسلامى(٣).

---

(١) وقد تناول المقريزى دور المماليك فى الحروب الصليبية وركز على دور الملك الصالح وتكوينه للمماليك البحرية، وكذلك دور السلطان المعظَّم توران شاه فى موقعة المنصورة، وأسر ملك الفرنسيين. راجعه، السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٤. نشرة محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول – القسم الثانى ص ٣٣٩ وما بعدها و ٣٥٤ وما بعدها، واعتقال ملك فرنسا فى دار ابن لقمان ، ٣٥٦ وما بعدها. وقد كان لبيبرس دور عظيم فى هذه الموقعة. وراجع كذلك النجوم الزاهرة، ج٦، ٣٦٤ وما بعدها. وسعيد عاشور ، العصر المماليكى، ٨، ٩، ٥٥ وما بعدها.

(٢) راجع المقريزى، الخطط، ج٣، ٣٨٧-٣٨٨، فى حديثه عن قلاوون وج٤ /٢٥٩-٢٦٢ فى حديثه عن المارستان المنصورى، ومحمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الأول، ٣٦.

(٣) زكى محمد حسن، فنون الإسلام، دار الرائد العربى، بيروت، ١٩٨١، ص٧٩.

وقد شهد عهد الناصر محمد ابن السلطان قلاوون الذى تولى سلطنة مصر ثلاث مرات أولها سنة ٦٩٣هـ، رخاء وازدهارا معمارياً بما أسسه فى مصر من مدارس ومساجد وقباب ومنشآت عظيمة، وقد قام الناصر ببناء جملة قصور وعمارات وقناطر، وهو الذى حفر الخليج الناصرى سنة ٧٢٤هـ[١]، وقد توفى سنة ٧٤١هـ ويعد كأبيه المنصور قلاوون ومن قبله الظاهر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك، وقد حكم مصر فى المرات الثلاث التى تولاها نحو ثلاث وأربعين سنة اتسع فيها ملك مصر، فى عصره، شرقا وغرباً[٢]. وترك آثاراً معمارية شامخة خصوصاً جامعه.

لقد تميز العصر المملوكى بظاهرة اهتمام السلاطين والأمراء المماليك بإقامة المنشآت التى تتصف بالفخامة وعظمة المعمار وروعته. ولا تزال آثارها باقية فى مصر حتى اليوم شاهدة على هذه الظاهرة الحضارية العظيمة. من ذلك مسجد السلطان حسن، ابن الناصر محمد، ويعرف، كذلك بمدرسة السلطان حسن، وقد بنى فى ثلاث سنوات متصلة من سنة ٧٥٧هـ وقد ذكر المقريزى أنه لا يعرف فى بلاد الإسلام مثل هذا الجامع فى

(١) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الأول، ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق، نفس المجلد والصفحة.

روعة بنائه، وعظمة معماره[١]، وهو آية فـــى روعـــة البنـــاء والهندسة الشاهدة على عظمة العمارة الإسلامية فـــى العصـــر المملوكى، إذ جاء "فى اتساع مساحته، وروعة تصميمه، وجمال زخارفه آية فنية يفخر بها الفن الإسلامى إطلاقاً [٢]" وقد أفـــاض زكى محمد حسن فى بيان جمال بنائه، وعدَّه من أجمل العمـــائر الإسلامية "مظهراً جليلاً ومساحة هائلة وتصميما عجيبا وحـدودا مترامية وقبة عظيمة وأبواباً فخمة وإيوانات عاليـــة وزخـــارف دقيقة، ممَّا جعله أكمل العمائر الإسلامية فى العصر المملوكـــى، وأكسبه شهرة عالية وعظمة تمثل مجد الإسلام"[٣]، بما تمـــيزت به عمارته من روعة فنية وهندسية. وقد كان حـــب الســـلاطين المماليك للعمارة الفخمة مظهراً، لاشك فيه، من مظاهر عظمـــة ملكهم، وغنى وثراء دولتهم.

وقد خلَّف بعض سلاطين الممـــاليك ممَّـــن تمـــيز حكمـــهم بالاستقرار السياسى النسبى كثيراً من الآثـــار الأخـــرى تشـــهد بعظمة ملكهم، مثل السلطان برقوق مؤسس الدولـــة المملوكيـــة

---

(١) خطط المقريزى، ج٤، ١١٧، ١١٨، وراجع كذلك السيوطى، حسن المحـــاضرة، ج٢، ص٢٦٩.

(٢) سعيد عاشور ، العصر المماليكى، ٣٧٣.

(٣) زكى محمد حسن، فنون الإسلام، ٧٣، وراجع كذلك ص ٧٤- ص٧٧.

الثانية الذى انتزع الملك من سلاطين أسـرة قـلاوون بعـد أن ضعف أمرهم، منهياً دولتهم البحرية، ومؤسّسا دولته البرجيـة عام ٧٨٤هـ[١]. وقد اجتمعت فى مسجده الكبير الذى دُفن فيـه، وبنى فيه "خانقاه" للصوفية، مظاهر العمارة الدينية الفخمة. وقـد اجتمعت فيه العناصر المعمارية المصرية الإسـلامية[٢]. وقـد توفى سنة ٨٠١هـ بعد أن رصد أوقافاً طائلة على وجوه الـبر والإحسان، كما أنه أقام كثيراً من الجسور والأسوار والعمائر[٣]. ويعد الملك الأشرق قايتباى المحمودى الذى حكم مصر ما يقرب من ثلث قرن، وتميز حكمه بالاستقرار، من سـلاطين مصـر العظماء فى دولة المماليك البرجية، وقـد تولـى الحكـم سـنة ٨٧٢هـ، وقد اشتهر بالقوة والحزم ودحر خطر العثمانيين وقـد أصبحوا أعداء لمصر[٤]، وقد اهتم قايتبـاى بإقامـة المنشـآت الفخمة من مدارس ومساجد وغيرها، وقـد اشـتهر بمنشـآته العديدة، وآثاره العظيمة، ويعد مسجده بالقاهرة، والوكالات التـى شيدها من أجمل المبانى العربية فى ذلك العصر[١]، وكذلك فقـد

---

(١) خطط المقريزى، ج٣، ص٣٩٥.ومحمود رزق سليم، المجلـد الأول مـن كتـاب عصـر سلاطين المماليك، ص٥٢.

(٢) زكى محمد حسن، فنون الإسلام، ٧٧. وسعيد عاشور، العصر المماليكى، ٣٧٤.

(٣) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الأول، ٥٥

(٤) المرجع السابق، ٦٧، ٦٨.

من أجمل المبانى العربية فى ذلك العصر[١]، وكذلك فقد بنى قلعة شهيرة هى قلعة قايتباى بالإسكندرية[٢]. ويعد مدفنه من أعظم المدافن المملوكية وهو مجموعة رشيقة تتألف من مدرسة وسبيل ومكتب وقبة، وتكتسب هذه المجموعة أهمية خاصة فى تاريخ الطراز المملوكى لجمال النسب فى عمارتها، ورشاقة المئذنة والقبة، وإبداع زخارفهما، وتنوع رسوم الأرضية الرخامية ورسوم السقوف[٣].

ومع أن قانصوه الغورى قد تولى حكم مصر سنة ٩٠٦هـ، وهى فى أحرج مراحلها التاريخية إذ تهددها خطر الغزو العثمانى[٤]، فقد أقام منشآت نافعة، وقد كان الغورى شاعرا أديبا

---

(١) سعيد عاشور، العصر المماليكى، ١٧٤، وراجع كذلك ص٣٧٥.

(٢) وقد أفرده ابن إياس بترجمة ضافية، فى معظم الجزء الثالث، وقد مدحه ابن إياس، فوصفه بالعزة والشهامة والسكينة والوقار والهيبة والحكمة وسداد الرأى والدراية بأمور المملكة والتروى فى الأفعال، لم يشرب قط خمرا، وكان يحب العلم ويكثر المطالعة فى الكتب ويوقر المتصوفة ويتلو الأوراد ويعظم العلماء وينفق على وجوه البر والخير. وقد لخص ابن إياس الرأى فى حكمه مقررا أن محاسنه كانت أكثر من مساوئه، وقد ذكر ابن إياس ما أقامه قايتباى من مبان فاخرة وما أنشأه من مدارس ومساجد كثيرة، غير الزوايا والأسبلة الكثيرة التى أنشأها بالقاهرة وكذلك أنشأ بمصر عدة قناطر وجسور. راجع التفاصيل بدائع الزهور من ص ٣٢٥-ص٣٣٠، ج٣، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.

(٣) زكى محمد حسن، فنون الإسلام، ٧٧-٧٨.

(٤) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الأول، ٧٣-٧٦.

محبا للأدباء، وهو بلاشك من أواخر سلاطين مصر العظماء، ولا تزال وكالته القائمة إلى الآن مصدرا للفن والثقافة[1].

وقد أشار محمود رزق سليم إلى حب المماليك للبناء الفخم بقوله :

"وقل أن ترى سلطانا أو أميرا أو أميرة، أو أحدا من أعيانهم لم يخلف أثرا كقصر مشيد، أو مسجد جامع أو بستان رائق، وغير ذلك، وتلك مساجدهم تملأ فجاج القاهرة، وتتراءى مآذنها فى سمائها، كما لا يزال كثير من أسمائهم وقصورهم وشوارعهم وأزقتهم يتردد ذكره أو يلوح فيها. [2]"

وهذا يدل دلالة واضحة على أن المماليك، على سلبياتهم، قد طبعوا عصرهم بطابع معمارى ضخم متميز، وعكست القاهرة بمساجدها ومنشآتها المملوكية العريقة العبق التاريخى لمصر الشامخة حتى هذه اللحظة. يقول زكى محمد حسن، واصفا العمارة الإسلامية فى العصر المملوكى بمصر، "لا ريب فى أن

---

(١) وقد أفاض ابن إياس فى تاريخه ذاكرا الأحداث التى وقعت على عهده يوما بيوم ، وقد سجل حسناته ، ج٥، ص٨٩.

(٢) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثانى، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٣٩٣.

عصر دولتى المماليك هو العصر الذهبى فى تـــاريخ العمـــارة الإسلامية فى مصر، فقد كان الإقبـــال عظيمـــا علـــى تشـــييد العمائر... كما ظهر التنوع والإتقان والأناقة فى شتى العنـــاصر المعمارية"[1].

وقد امتازت عمارة العصر المملوكى فى مصر بكثرة الرسوم والزخارف الجميلة، كما امتازت بالرقى الفنى، واتسمت بالطابع العربى الواضح. وقد ازدهر فن الرسم والتصوير، خصوصا فن الرسم على الزجاج، مثل المشكاوات الرائعة الزخارف[2]. وقـــد أدى الثراء والرخاء والغنى الذى حظيت به الدولة المملوكية إلى رقى الفنون، ونهضة العمارة[3].

ويعد هذا الإنجاز الفنى المعمـــارى الحضـــارى لســـلاطين المماليك، وكان آخرهم طومان باى، وقـــد هزمـــه العثمـــانيون وشنقوه على باب زويلة (سنة ٩٢٣هـ)، إيذانا بـــزوال دولـــة المماليك، وقيام دولة العثمانيين. نقول إن هذا الإنجاز الذى حققه سلاطين المماليك العظماء، ممن ذكرنا بعضهم، يختلـــف عمـــا

---

(١) زكى محمد حسن، فنون الإسلام، ٧١.

(٢) المرجع السابق، وتفاصيل عن المشكاوات وجمال زخرفتـــها، مـــن ص ٦٠٢ إلـــى ص٦١٢ . وسعيد عاشور، العصر المماليكى، ٣٧٦-٣٧٨.

(٣) سعيد عاشور ، المرجع السابق، ٣٧٢ وما بعدها.

حدث فى تاريخ مصر تحت الحكم العثمانى البغيض، فقد قضت دولة العثمانيين (وقد استمر حكمها لمصر من سنة ٩٢٣ هـ إلى أن زالت سنة ١٢١٩هـ، أى مايقرب من ثلاثة قرون) نقول قضت على ما بقى من مظاهر الحضارة والثقافة فى مصر، ونهب العثمانيون خلال مدة حكمهم كنوز التراث العربى من كتب، وما خلفه المماليك من تحف وكل شئ ثمين، وحملوا كل ذلك إلى القسطنطينية، كما حملوا إليها، كذلك، خيرة صناع مصر الذين قامت بفنهم وسواعدهم نهضة العمارة الإسلامية فى عصر المماليك، وقد تميزوا بالمهارة الفنية والذوق الجميل، ودقة العمل[١].

وقد غرقت مصر فى عهدهم فى دياجير الظلام والتخلف إلا بعض الومضات المشرقة التى لاحت فى عصرهم من حين إلى حين من خلال تميز بعض العقول المصرية فى المجالات المختلفة.[٢] وقد جرد العثمانيون مصر من علمائها وفنانيها

(١) سعيد عاشور، العصر المماليكى، ١٧٨ وما بعدها، و ٣٨٣.

(٢) وقد تناول محمد سيد كيلانى فى كتابه : الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، بعض مظاهر هذه الومضات ممثلة فى بعض مشاهير الشعراء من ص٢٨٤ إلى ص ٢٩٤ وقد نشر الكتاب بدار الفرجانى، القاهرة – طرابلس – لندن، سنة ١٩٨٤ وقد أشار كذلك إلى بعض مشاهير الكتاب من ص ٢٧٦ إلى ص٢٨٤ وبعض العلماء والمؤرخين وأصحاب السير، ٥٢-٥٤، ٢٩٥-٣٠٢ وبعض النابهين فى الطب، ٤٣.

وتراثها الفكرى والفنى[1]، وتركوها قاعا صفصفا، علـــى حـــد تعبير محمود رزق سليم[2].

وقد بكى ابن إياس سقوط مصر فى أيدى العثمانيين فى شعر سجل هذا الحـــدث التـــاريخى الـــذى أفقـــد مصـــر ســـيادتها واستقلالها[3]، وارتكب العثمانيون فيه من الفظائع مـــا لـــم تـــر مصر نظيرا له من قبل "قتلوا وأســـرفوا فىالقتـــل، وخربـــوا، وأمعنوا فى التخريب، ودمروا وأفرطوا فى التدمـــير. هدمـــوا القصور حتى زالت أحياء كاملة، وأعتقلوا عـــددا كبـــيرا مـــن الأعيان والعلماء والتجار، ونفوهم إلى الآستانة ... فلا عجب إذا تألم الشعب، وحزن حزنا عميقا لهذه الأحداث الجسام التى نزلت

---

(١) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ٤١.

(٢) وقد عبر أبلغ تعبير عند مقارنته بين المماليك والعثمانيين وقد رأى أن المماليك، مـــع مساوئهم قد جعلوا مصر فى عصرهم "مستقلة منشورة السلطان فى جميـــع البقـــاع الإسلامية، تدين لها هذه البقاع بالتبعية السياسية أو التبعية الأدبية، فكانت مركـــز = = الإسلام، ومبعث الحركة العلمية، ومنزل الخلافة. أمـــا العثمـــانيون فقـــد أزالـــوا استقلالها، وعبثوا بحرياتها، وزادوها ظلمة على ظلمة، ومكثت موءودة تحت عـــبء الاحتلال... العثمانيون نهبوا أموال البلاد وملأوا جعابهم بذهبها وكتبها، وساقوا إلـــى القسطنطينية خليفتها وقضاتها وأطباءها ومهندســـيها ومباشـــرى الأعمـــال فيـــها، ونجاريها وحداديها، وكل ذى علم وفن معروف فيها ثم تركوها قاعا صفصفا يجـوى الخراب على أديمها فأى إثم هذا الذى اقترفوه؟ لقد انتقل بهذا الاحتلال، قلب الإســـلام من القاهرة إلى القسطنطينية، ومعه مركز العلم ومنزل الخلافة"، عصـــر ســـلاطين المماليك، المجلد الأول، ص٨٠.

(٣) إبن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٧٠.

وحزن حزنا عميقا لهذه الأحداث الجسام التى نزلت به[1].

وقد فصل إبن إياس ذكر الفظائع التـــى ارتكبـــها الســلطان العثمانى سليم الأول وجيوشه فى مصر، ويعد ابن إيـــاس أهـــم مرجع فى الفتح العثمانى لمصر، لأنه شاهد عيان لوقـــائع هـــذا الحدث التاريخى الفاصل فى تاريخ مصر. وقد سجل ابن إيـــاس فى تاريخه كل ما ارتكبه العثمانيون فى مصر من قتـــل وهـــدم وتخريب، وقد جاء ذلك فى جزء خاص هو الجزء الخامس الذى خصصه لتأريخ هذه المرحلة الحرجة فى تاريخ مصر من ســـنة ٩٢٢هـــ إلى سنة ٩٢٨، وقد كان هذا التاريخ صـــورة معـــبرة أقسى تعبير عن فضائع العثمانيين فى مرج دابـــق والريدانيـــة وغيرها[2]، وكذلك شنقهم لطومان باى آخر سلاطين الممـــاليك وقد رثاه ابن إياس بقوله :

لهفى على سلطان مصر كيف قد   ولـــى وزال كأنـــه لـــن يذكـــرا[3]

وفى الكتاب الهام للسير وليم موير (تاريخ دولة المماليك فـــى مصر) يقرر أن ابن إياس هو الكاتب العمدة الوحيد الذى نجعـــل اعتمادنا عليه فى تاريخ الجزء الأخير من أسرة المماليك، وبمـــا

(١) محمد سيد كيلانى، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، ١٧٤-١٧٥.
(٢) راجع ص ١٥١ وما بعدها، ج٥ من بدائع الزهور.
(٣) المصدر السابق، ١٧٧، وراجع، كذلك ، ١٧٦.

أنه عاش بعد سقوطها فكتابه يمدنا بمعلومات قيمة عن عصر تعوزنا فيه الكتب الأخرى[1]. والحق أننا لا نعقد مقارنة بين المماليك والعثمانيين فكلاهما كان وبالا على مصر، وإن كان المماليك، كما بينا، قد أقاموا حضارة عمرانية شهدتها مصر ودمرها العثمانيون.

ولاشك أن ما أشرنا إليه من إيجابيات العصر الملوكى إنما هو من صنع أبناء الشعب المصرى من أصحاب العلم والقلم كالسيوطى وغيره ممن ألفوا الموسوعات العظيمة التى قدمها هذا العصر المملوكى، وممن أسهموا بحركة تأليف واسعة فى كافة حقول المعارف الإنسانية، وممن بنوا بسواعدهم وفنونهم هذه المنشآت المعمارية الفذة. ومع أن أنور زقلمة قد رأى أن المماليك كانوا شرا على مصر، فإنه استثنى منهم المماليك البحرية والبرجية، حسب تقسيمه الذى اعتمد فيه على حافظ عوض، وانتهى فيه إلى أن هناك طبقة ثالثة من المماليك امتد حكمهم خلال العصر العثمانى كله إلى استقلال محمد على

(١) السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك فى مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، وإن كان قد صدر فى هذا الكتاب عن روح متعصبة ضد التاريخ المملوكى وسلاطينه العظماء، خصوصا الظاهر بيبرس وإن كان يمكن فهم هذا الموقف السلبى من موير لبلاء هذا البطل العظيم فى الحروب الصليبية.

بمصر[١]، وهو بذلك يلتقى مع نتيجتنا فيرى أن عصر المماليك، فى قسمته التقليدية، أمتع عصر فى تاريخ مصـــر، وأنـــه مـــع غموضه، ووصفه بالعصر المظلم "كان عصرا قائما بنفسه لـــه مظاهر وتعاليم وفلسفة ونظم اجتماعية وأخلاقية خاصة بـــه"[٢]. ويقرر زقلمة، كذلك، أن ما يوجد الآن فى القاهرة من المســـاجد الكبيرة التى تناطح مآذنها السحاب، وبنيت فى عصر ممـــاليك هاتين الطبقتين، يعنى المماليك البحرية والبرجية، مثل جوامـــع قلاوون، والناصر، والناصر بن قلاوون، والســـلطان حســـن، وبرقوق والمؤيد والأشرف قايتباى، وكذلك قباب قبور الممـــاليك بالصحراء، يعد من جلال البناء وبديع العمارة مما لا يدانى[٣].

ومن الظلم والإجحاف أن تجحد آثار هذه الإنجازات الثقافيـــة والعلمية والأدبية والمعمارية والفنية، التى أشـــرنا إليـــها، مـــن إيجابيات العصر المملوكى، ومن صنع أبناء الشعب المصـــرى، لا المماليك الذين لم يحسنوا إلا فنون القتال، ودسائس السياســـة، ومؤامرات الحكم، إلا بعض ما أشرنا إليه من الإنجاز التـــاريخى

---

(١) أنور زقلمة، المماليك فى مصر، مكتبة مدبولى، القاهرة، الطبعـــة الأولـــى، ١٩٩٥، ص ٢٤، ٢٥.

(٢) المرجع السابق، ١٧.

(٣) المرجع السابق، ٢٦-٢٧.

للظاهر بيبرس، من قضائه على التتـــار، أو بعــض ممـــيزات سلاطين المماليك الآخرين ممن أشرنا إلى بعضهم فـــى ســياق حديثنا عن عمران هذا العصر. ومن المؤسف أن يوصـــم الأدب المصرى فى العصور الإسلامية بالتخلف والانحطاط، وأن ينـــال العصر المملوكى النصيب الأكبر من هذا الاتهام الظالم.

فبروكلمان، مثلا، وهو مستشرق له صيت ذائع فى اشـــتغاله بالدراسات العربية، قد سلب العصر المملوكى أهـــم إنجازاتـــه الفكرية والعلمية والأدبية والفنية والحضارية، إذ رأى أن العلـــوم الدينية فى هذا العصر قد وصلت إلى أقصى درجات العقـــم[١]، كما رأى أن التصوف قد تحول عن فكـــرة مؤسســـيه، واتجـــه اتجاها مخالفا تماما لفكرتهم، وتحول على يد الدراويـــش إلـــى عبارات جامدة، ورأى أن الرياضيات والعلوم الطبيعية كـــادت تختفى، وأن مستوى التأليف قد انحدر[٢].

ولم تقدم علوم اللغة، فى هذا العصر، فى رأى بروكلمــــان، سوى عدة كتب مدرسية، وعدة معاجم، وصفها، متكرما، بأنـــها مفيدة!.

---

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربى، ترجمة محمود فـــهمى حجـــازى وآخريـــن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، القسم السادس، نشر سنة ١٩٩٥، ص٩.

(٢) المرجع السابق، ٩-١٠.

أما الزجل والموشح، الفنان الشعبيان، فقد كانا، فى نظـــره، موضع اهتمام، "ولكن طبقة الأدباء السائدة لم تكن تأخذهما مأخذا جادا، وكانت تعدهما مجرد لعب هواة." [1]

والحق أن بروكلمان لم يدرك الأبعاد العميقة لجوهر الثقافـــة العربية، وندلل على ذلك بخطأ فهمه لاتجـــاه كتـــاب العصـــر المملوكى للتأليف الموسوعى، ممثلا فى خطأ رأيه فى السيوطى وقد اتخذه بروكلمان مثلا لســـلبيات المؤلفيـــن الموسوعســـيين، ودليلا على انحدار مستوى التأليف فى هذا العصر، من وجهـــة نظره، يقول : [وأخيرا فإنه مما يدل على انحدار مستوى التأليف كثرة الاهتمامات، على نحو محزن، عند مدعى المعرفـــة بكـــل شئ، وأهم من يمثل هؤلاء الموسوعيين "السيوطى" وهو جديـــر بأن نذكره فى هذا المقام.] [2]

فماذا مثل السيوطى عند بروكلمان؟ وما هو المعنـــى الـــذى فهمه من مؤلفاته الموسوعية؟ وماذا أضاف بروكلمان إلى مـــا قدمه من وصف مؤلفات السيوطى بأنها دليـــل علـــى انحـــدار مستوى التأليف؟ وأنها دليل على ادعاء المعرفة بكل شئ. لقـــد

(١) المرجع السابق، ٩.

(٢) المرجع السابق، ١٠.

رأى بروكلمان، على نحو محزن، إذا استخدمنا تعبيره، أن السيوطى قد جمع كل اهتمامات عصره دون تمييز بين القدسى الجليل من هذه الاهتمامات، وبين ما هو تافه منها، فقال عن كتب السيوطى : " لقد جمع فى كتبه كل مجالات اهتمام عصره من أسرار الكلمة الإلهية إلى فوائد البق ومتع الجماع مع النساء." (١)

ويستخف بروكلمان بإنجاز مصر والشام فى هذا العصر، فلا يرى فيه إلا ورقا كثيرا وحبرا كثيرا يكتب به هذا الورق، وأن غاية ما يمكن أن يكون لهذه المؤلفات من فائدة أنها تقدم بديلا عن كتب أقدم منها لم تعد متاحة لنا اليوم. وكأنه لم ير فى تراث هذا العصر سوى أنه نسخ وتقليد لما سبقه من تراث. ثم يخطئ بروكلمان، كذلك، عندما يدعى أن الأتراك الذين كانوا -وحدهم- فى ميدان السياسة قد نافسوا العرب، أيضا، فى مجال التأليف منافسة لا يستهان بها!(٢) أما ما تفضل به بروكلمان، وحسبه من الإنجازات الأدبية الإيجابية لهذا العصر، وهى كتب التسلية الأدبية والحكايات والسير الشعبية التى أخذت شكلها النهائى فى هذا العصر، فقد مر عليها دون تعقيب.

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق، ١٢.

وإذا كانت هذه هي آراء بروكلمان الذى يعد أكبر باحث عرفته الجامعات الأوروبية في النصف الأول من القرن العشرين في مجالات الدراسات السامية، وتاريخ التراث العربى على نحو ما ذكر محمود فهمى حجازى فى تقديمه لطبعة كتاب "تاريخ الأدب العربى" الذى أشرف على ترجمته، وشارك في هذه الترجمة، وإذا كانت هذه هى ثمرة عمله الأكاديمى الدءوب، مدة تزيد عن ستة وستين عاما استأثر التراث العربى فيها باهتمامه ودراساته المتنوعة فيه، خصوصا اهتمامه بالمخطوطات العربية، فضلا عن كتابه "تاريخ الأدب العربى" الذى ضمنه هذه الآراء التى عرضنا لها، ولم يقصد بروكلمان بهذا الكتاب الأدب من شعر وقصة وأدب مسرحى فقط، وإنما قصد به التراث المدون أو الكتب أو المراجع بما تحتويه من النثر الفنى، وعلوم اللغة والنحو، وعلوم القرآن والحديث والفقه والعقائد والتصوف، إلى جانب الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات والتاريخ، وهو ما يجعله تاريخا للتراث العربى فى إطار الحضارة الإسلامية[1].

---

(١) راجع مقدمة محمود فهمى حجازى فى مقدمة كتاب "تاريخ الأدب العربى" ومقالته عن بروكلمان فى القسم الأول من هذا الكتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ١٦-١٩.

نقول إذا كانت هذه هى آراء بروكلمان فى التراث العربى فى العصر المملوكى، وقد ظلمت هذا التراث، مع تقديرنا لإسهاماته العلمية، ودوره الكبير فى الكشف عما زخرت به المكتبة العربية من كتب قيمة، واهتمامه بالتراث العربى طوال حياته، فما بالنا بآراء غيره من المستشرقين أو من العرب الذين لم يبلغوا مبلغه من العلم والاهتمام بالتراث العربى ممن أخذوا، بدون تأمل وفهم علمى دقيق، يسلبون التراث العربى فى مصر فى العصور الإسلامية كل أصالة وقيمة وإبداع، مطلقين، فى تعميم مخل، وبجرة قلم، وبجرأة على العلم، أحكاما تصم هذه العصور بالجمود والعقم، ناهيك عمن تميز منهم بالأصالة العلمية مثل عبد العزيز الأهوانى، رحمه الله، وقد ظلم، على سعة علمه، وجلالة قدره فى مجال الدراسات الأدبية الأندلسية، رمزا من رموز الأدب المصرى فى العصر الأيوبى وهو ابن سناء الملك فعده مثلا للعقم فى الشعر العربى، وأدار على تلك الفرضية كتابه المهم "ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر"، نافيا عن هذا الشاعر الذى عده شوقى ضيف أكبر وأنبه شاعر أنجبته مصر إلى عصره، كل جدة أو أصالة أو ابتكار[١].

---

(١) تناولت هذا الموضوع بالدراسة فى بحث بعنوان "حول منهج دراسة الأدب المصرى: فكرة الإقليمية" وفى كتابى "نقد الشعر فى مصر الإسلامية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦، ٢٠٤.

وقد سادت هذه الفكرة السلبية عن التراث العربى فــــى مصـــر عموما، وعن الأدب خصوصا، حتى صارت كالمسلمة البديهيــة التى يتربى عليها النشء بتعلمهم لها فى الكتب المدرسية.

والحق أن بروكلمان ، مهما كانت نياته، فيما عرضنـــا مـــن آرائه السلبية فى إنجازات التراث العربى فى مصر فى العصـــو المملوكى وقد خص السيوطى رمزا للتراث العربى فــــى هـــذا العصر، بأكثر هذه الآراء ظلما، لم يتبين الســـياق الحضـــارى لمغزى التأليف الموسوعى فى هذا العصر، ممثلا لغــــيره مـــن العصور الاخرى، إذ اتسمت الحضارة العربية الإسلامية بـــهذا الطابع الموسوعى فى التأليف، ورمزها الرفيع فى ذلــــك هـــو الجاحظ، وكانت مؤلفاته دائرة معارف لعصـــره. وقـــد أكـــدت مؤلفاته عمق الفلسفة العربية التى انطلق منها والتـــى تـــرى أن الأديب هو المثقف، بالمعنى الواســـع للثقافـــة التـــى قصدهـــا بروكلمان فى دراسته الشاملة للكتب العربية على اختلاف وتنوع مجالاتها فى كتابه المهم "تاريخ الأدب العربى"، وإن لم يستوعب الأسس الحضارية العربية التى قامت على أساسها هذه الكتـــب الموسوعية.

فالأديب، بالمفهوم العربى الأصيل، يجب أن يقف على ثقافـة

عصره، وأن يعبر عن شمول ثقافته تعبيرا أدبيا جميلا أصيـــلا. وتتواتر نصائح الأدباء العرب الكبار منذ عبد الحميد الكـــاتب، وقبله، وبعده، إلى الشادين من الأدباء أن يتســلحوا بالمعـــارف والثقافات العديدة كي يكتسب أدبهم الأصالـــة والجـــدة. فصبـــح الاعشى للقلقشندى، مثلا، وهو من أعلام كتاب العصر المملوكى (ت٨٢١هـــ) موسوعة كبيرة تعطى فكرة واضحة عن الثقافـــة التى كان لابد للكاتب أن يحيط بها. فضلا عن الفنون الكتابيـــة التى يجب عليه أن يتقنها، وهذا يدل على تقدير أسلافنا لضرورة التزود بألوان من الثقافة، وفنون من المعارف، واعتمادهم عليها فى رقى الفن والإنسان(١).

وقد فصل عبد اللطيف حمزة الحديث عـــن ثقافـــة الكـــاتب الموسوعية كما رسمها "القلقشندى" مؤلف كتاب "صبح الأعشى"، من ثقافة علمية أهمها علوم العربية كاللغة والنحـــو والصـــرف والمعانى والبيان والبديع، والعلوم الدينية كعلوم تفسير القـــرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، وخطـــب العـــرب ورســـائل بلغائهم، وقصائد الشعراء، وأمثال الحكماء، ومعرفـــة أنســـاب

---

(١) عبد اللطيف حمزة ، القلقشندى فى كتابه "صبح الأعشى" العدد ١٢ من سلسلة أعـــلام العرب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشـــر ، القـــاهرة، د.ت، ص٦.

العرب وتاريخهم فى الجاهلية والإسلام، وتاريخ مصر، والإلمام باللغات الأخرى كالفارسية واليونانية والسريانية والعبرية، وأن يكون الكاتب قادرا على الوصف، خاصة الخيل، والآلات التى يستخدمها الملوك، ومعرفة آلات السفر والسلاح وغيرها إلى جانب ما يجب أن يتمتع به من ثقافة عملية كمعرفة فن الخط، وفن الكتابة بالقلم، إلى آخر تلك الثقافات والفنون التى كانت ترفد الأديب، وتشكل عاملا مهما فى تكوين شخصيته الأدبية وارتقائه الفنى(١). لقد كان صبح الأعشى موسوعة صبغت صبغة أدبية، بالمعنى العام للأدب الذى يوشك أن يكون مرادفا للثقافة العامة فى عصرنا هذا(٢). ومع أن هذا الكتاب كتاب فى فن الكتابة الديوانية، فإنه يعد سجلا حافلا للكتابة الرسمية للعالم العربى على مر العصور(٣). وقد تتبع القلقشندى فيه فنون الكتابة الديوانية فى كل بلد من بلاد الإسلام إلى عصره، وقد اهتم إلى جانب ذلك، اهتماما واضحا بوصف مصر(٤)، وذكر محاسنها وفضائلها، وما يتعلق بالنيل والزراعة فيها، وعادات أهلها

---

(١) المرجع السابق، للتفاصيل، ص ٨٢ وما بعدها.

(٢) عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، ص٣٢٨.

(٣) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ١٥٧.

(٤) عبد اللطيف حمزة، القلقشندى فى كتابه "صبح الأعشى"، ٥-٧.

وأعيادهم[1].

وتدل مؤلفات القلقشندى على سعة ثقافته وتعدد مواردها، وقد جمع العديد من جوانب المعرفة فى عصره، وفى مقدمتها الثقافة الدينية كعلوم القرآن والحديث والفقه، وضم إليها علوم التاريخ والإدارة، واللغة والأدب وفنون الكتابة والإنشاء[2]. والكتاب "جامع لكثير من علوم ومعارف العصر المملوكى، وجوانب الإدارة والحياة السياسية، ورسوم السلطنة، ورجال الحكم، وتاريخ الدولة وأخبار السلاطين والحكام، وما يتصل برسوم ديوان الإنشاء، وما يصدر عنه من مكاتبات ومراسيم ومنشورات تتصل بإدارة الدولة وعلاقاتها الخارجية بغيرها من الممالك والبلاد"[3].

لقد اتخذت مقامات السيوطى طابعا موسوعيا معبرا عن ثقافته الموسوعية وعن ثقافة العصر المملوكى التى وسمت مؤلفاتها بالاتساع والشمول. وقد درست هذا الموضوع فى كتاب عن مقامات السيوطى، وقد أشرت إلى أنه بهذا الطابع الموسوعى فى مقاماته أو فى مؤلفاته، كان متسقا مع الطابع

---

(١) المرجع السابق، ١٣٠ وما بعدها.

(٢) محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى، ج٤، ص ٢٨٩.

(٣) المرجع السابق، ٢٩٤.

الأدبى والثقافى والحضارى العربى فى مصر الإسلامية، ومن المهم فى هذا الصدد أن أذكر أن كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندى، بمجلداته الأربعة عشرة، كان شرحا لمقامة كتبها بعنوان "الكواكب الدرية فى المناقب البدرية"وقد أنشأها تقريظا للقاضى بدر الدين رئيس الديوان فى ذلك الوقت. وقد كان كتاب "صبح الأعشى" موسوعة جمع فيها القلقشندى كثيرا من النصوص الأدبية والوثائق التاريخية التى يندر وجودها فى غيره[1]، هادفا إلى إظهار أهمية الكتاب فى نظام الحكم الإسلامى، وقد حفل الكتاب ، كذلك، "بمادة غزيرة من الأدب الشعبى والمأثورات والأساطير والعقائد المتعلقة بالطبيعة، والكائنات المختلفة من جماد ونبات وحيوان وطير وإنسان. كما يحفل بكثير من الأمثال العربية القديمة، والأمثال الشعبية المتداولة بين الناس والمتصلة بأحوالهم والأحداث الخارجية"[2].

وقد اشتمل صبح الأعشى على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة، تناول القلقشندى فى المقدمة مدح الكتابة وتطور الإنشاء وديوانه إلى عصره فى مختلف الدول الإسلامية، وخصص المقالة الأولى لمجموع المعارف التى يحتاجها الكاتب للقيام بمهمته

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) المرجع السابق، ٢٩٧، وراجع ٢٩٦.

الخطيرة على أكمل وجه، أما المقالة الثانية فقد تناول فيها جغرافية الأرض والجغرافيا السياسية، وفى الثالثة تناول أنواع المكاتبات مع تفصيل لما يتعلق بها فى ديوان الإنشاء المصرى وفى الرابعة، وهى أهم مقالات الكتاب، وأكبرها، يقدم القلقشندى ثبتا مطولا لألقاب الملوك وأرباب السيوف والعلماء والكتاب والقضاة مرتبة على حروف المعجم، ويقدم شرحا لأساليب الكتابة، ويتناول فى المقالة الخامسة مسألة الولايات وطبقاتها من الخلافة والسلطنة، ويورد وثائق ونصوصا رسمية هامة تلقى الضوء على تاريخ مصر الإدارى والسياسى، وفى المقالة السادسة يتحدث عن الوصايا الدينية، وفى السابعة عن الإقطاعات، وفى الثامنة عن الأيمان، وفى التاسعة عن عهود الأمان، وفى العاشرة يتناول فنونا من الكتابة مثل المقامات والرسائل. ويختم القلقشندى هذا الكتاب الموسوعى بغير أمور الكتابة مما يتعلق بديوان الإنشاء مثل البريد وتاريخه فى مصر والشام[(١)].

ويصدر القلقشندى فى أسلوب أدبى بليغ، صبح الأعشى موضحا أن الكتابة ، خصوصا الإنشائية، من "أشرف الصنائع

---

(١) مقدمة المحقق محمد حسين شمس الدين، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، الجزء الأول، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧، من ص ٢١-٢٤.

وأرفعها، واربح البضائع وأنفعها، وأفضل المآثر وأعلاها وآثـر الفضائل وأغلاها، لاسيما كتابة الإنشاء التى هى منها بمنزلـة سلطانها وإنسان عينها بل عين إنسانها"[١]. ويؤكد القلشندى قيمة مصر وعلو قدرها قائلا " ثم لم يزل يعلو قدرها، ويسمو ذكرها إلى أن صارت دار الخلافة العباسية، وقرار المملكة الإسلامية، وفخرت مملكتها بخدمة الحرمين، وخدمها سائر الملوك لحيازة القبلتين". وقد بين القلقشندى ما حظيت به من فضلاء الكتاب بما لم تحظ مملكة من الممالك ولا مصر من الأمصار.

ثم بين هدفه من تأليف هذا الكتاب، ومنهجه فى سبيل تحقيق هذا الهدف ذاكرا أنه تصنيف جامع لمقاصد الكتابة، وقد اختلفت الاتجاهات والآراء والمصطلحات فيها لكى يدل على الأبعاد الموسوعية لمؤلفه العظيم[٢].

وقد عيب السيوطى، مثلا، بأنه رغب عن الاشتغال بالمنطق والفلسفة، ولم يتمكن من علم الحساب مما قدح فى أهليته أن يكون مجددا من وجهة نظر خصومه[٣].

---

(١) القلقشندى (أحمد بن على) صبح الأعشى، ج١، ص ٣٠.
(٢) راجع المصدر السابق، ٣١ وما بعدها.
(٣) اتهمه السخاوى بعدم الذكاء لأنه لم يتقن علم الحساب، وعد ذلك قدحا فى أهليته أن يكون مجدد العصر. راجع الضوء اللامع، المجلد الثانى، ج٤، ص ٦٧، ٦٨.

وبهذا المعنى الشامل لما يجب أن تكون عليه ثقافة الأديب من شمول وتنوع صدر كتاب الموسوعات فى العصر المملوكى متسقين مع المفهوم العربى الأصيل للأدب وعلاقته بالثقافة. وعن هذا المعنى كذلك، يمكن فهم إيجابيات التأليف الموسوعى فى مصر فى العصر المملوكى، وغيره من العصور، من أنها لا تعنى إقحام مؤلفيها لأنفسهم فى غير ما يعرفون إدعاء منهم العلم بكل شئ، كما ادعى بروكلمان، ولا تعنى، كذلك، افتئاتا على علوم لم يحسنوا دراستها أو الوقوف على أصولها. وقد كان تعدد مصادر ثقافتهم دلالة على تمكنهم من العلوم التى تبحروا فيها، والفنون التى أبدعوها، والإنجازات التى أضافوها إلى التراث العربى.

وقد كان للمؤلفات الموسوعية، فى العصر المملوكى خصوصا، دور كبير فى الحفاظ على التراث العربى من الضياع بعد أن أحرق التتار كتب هذا التراث، وأبادوا المكتبة العربية الزاخرة فى عاصمة الخلافة العباسية "بغداد"، التى دمروها، وأبادوا أهلها، وقضوا على مظاهر عمرانها وحضارتها.

ولم يخل هذا الهدف النبيل من تأليف الموسوعات فى العصر

المملوكى من إبداع أصيل، إذ لم يكن كله نقلا أو نسخا أو تقليدا لما سبق من تراث، وإنما صدر فيه الكاتب الموسوعى عن ذاته الأصيلة المعبرة عن ثقافة عصره، وتمثله لمعطياتها، وتجاوبه مع آلياتها، وإحاطته بفلسفتها، وأهمها كما أشرنا، أخذ الأديب من كل علم بطرف، وقطفه من كل بستان زهرة.

لقد أحيا علماء مصر وأدباؤها الثقافة العربية الإسلامية بتلك الموسوعات، وكان السيوطى بمؤلفاته الموسوعية، التى لم يستوعب بروكلمان، أبعادها فى عمق الثقافة العربية والحضارة الإسلامية، رمزا دالا على فلسفة وقيمة هذه المؤلفات الموسوعية تجسيدا لثقافته الواسعة، وتعبيرا أصيلا عن مفهوم الثقافة العربية فى عصره، وارتباط الأدب، بمفهوم هذا العصر، بمناحى الثقافة المتعددة، وصدوره عنها.

وهنا يمكن أن نضع المؤلفات الموسوعية فى سياقها العربى والمصرى، وفى تناغمها مع أهم ما أنتجه العصر المملوكى من موسوعات ليكون ذلك تأكيدا وتفسيرا لبعض المرجعيات الثقافية والعلمية التى استندت إليها هذه الظاهرة الحضارية للمؤلفات الموسوعية فى نتاج الثقافة العربية فى مصر الإسلامية.

لقد كان لهذه الظاهرة جذورها فى عمق الثقافة العربية، ممثلة

في العصر العباسي خصوصا، وقد امتدت إلى مصر عبر عصورها الإسلامية، فزخرت بالحركات العلمية الزاهرة، وقامت بدور أصيل في الإسهام في بناء الثقافة العربية الإسلامية في تفاعل مثمر مع منظومة الحضارة العربية التي أسهمت بنصيب وافر في تطور الحضارة الإنسانية.

لقد حكم الفاطميون مصر مدة تزيد عن قرنين (من ٣٥٨هـ - ٥٦٧هـ) دون أن يغلو المصريون غلو الفاطميين في المذهب الديني، أو يعتنقوا المذهب الشيعي الفاطمي، لاعتدال طبعهم وعدم ميلهم إلى التطرف الديني الذي وسم بعض جوانب العقيدة الفاطمية، خصوصا الإسماعيلية، وإن كان المصريون قد أحبوا أهل البيت قبل الفاطميين وبعدهم، ولم يبق في وجدان المصريين من تاريخ الفاطميين في مصر سوى الجامع الأزهر بما يجسده من رمز للعلم والدين والحضارة الإسلامية إذ هو جامع وجامعة يفيض نوره على جميع أرجاء العالم الإسلامي، ويفد إليه طلاب العلم من كل مكان ليتلقوا العلم على يد شيوخه، وقد يصبحون شيوخا يعلمون فيه، أو يرجعون إلى بلادهم ليؤدوا رسالة العلم الذي تعلموه في أزهر القاهرة. ويقف إلى جانب الأزهر رمز آخر هو جامع عمرو بن العاص وهو رمز ديني وعلمي شامخ

فى تاريخ مصر[1]، وإن كان الأول رمزا للشيعة والآخر رمزا للسنة فإن اعتدال المصريين قد ميز شخصيتهم التى لم تغل غلو بعض فرق الشيعة، ولم تتطرف تطرف بعض المذاهب السنية. وقد أشار محمد جمال الدين سرور إلى الجهود الكثيرة التى بذلها الفاطميون لتحويل المصريين من المذهب السنى إلى المذهب الشيعى، وعدم نجاحهم فى ذلك[2]. وقد أفاضت كتب التاريخ وسير الأعلام فى ذكر رجال مصر من القضاة والفقهاء والعلماء والشيوخ من المحدثين والقراء والصالحين والزاهدين، وذكر السيوطى، مثلا، كثيرا منهم فى حسن المحاضرة.

وقد عد ذو النون المصرى المؤسس الحقيقى للتصوف الإسلامى[3]، وكان ابن الفارض تتويجا لحركة الصوفية فى مصر، وتائيته الكبرى قصيدة من أهم قصائد الشعر الصوفى على الإطلاق. وابن الفارض علم من أعلام التصوف الإسلامى،

(١) وقد قامت فى مصر منذ إنشاء هذا الجامع ضروب من الدراسات الدينية واللغوية والأدبية، وتخرج فيه كثير من البلغاء والأدباء ، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ٣٣.

(٢) محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية فى مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٩، من ص ٧٩ إلى ص٨٥.

(٣) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ٦٢ وقد رجع إلى نيكلسون الذى عده أستاذ المتصوفة جميعا، واستند فى ذلك، بدوره، إلى ابن تغرى بردى الذى ذكر أنه أول من تكلم عن الأحوال والمقامات الصوفية.

وقد جسد معالم مذهبه الصوفى (وحدة الشهود) فى ديوانه، خصوصا التائية الكبرى، التى تعد أعمق القصائد الصوفية التى عبر فيها ابن الفارض عن شوق الصوفى للاتحاد بالله، وقد زخرت بالرمز الصوفى، ومحاولة التعبير عن أحوال ومقامات الصوفية فى معراجهم نحو التحقق بالذات الإلهية، وتطلعهم للاغتراف من الفيض الإلهى، وقد أفاض ابن الفارض فى وصف سعيه الحثيث نحو محبوبه (يعنى الذات الإلهية)، وقد عبر عن الحب الإلهى تعبيرا يفيض رقة وعذوبة فقد كان سلطان العاشقين. وقد عبر ابن الفارض عن مواجده، ومحوه عن عالم الخلق، وفنائه فى ذات الحق. ولم يفهم ابن الفارض التصوف إلا فى علاقته الصحيحة مع الشرع، فتصوفه مبنى على الكتاب والسنة، ومذهبه فى وحدة الشهود مخالف لمذهب ابن عربى فى وحدة الوجود خلاف ما بين هذين المتصوفين العظيمين فى تعبيرهما عن مذهبهما الصوفى بالرموز والإشارات الصوفية الخاصة بكل منهما.

وقد نقول إن ابن الفارض لم يغل فى تعبيره الصوفى غلو ابن عربى وإن كان الأول قد أثار جدلا حول بعض المعانى التى وردت فى التائية الكبرى، وقد تناولت هذا الموضوع بالدراسة

مؤكدا أن مذهب ابن الفارض فى التصوف لم يخرج عن الكتاب والسنة، وأن ما بدا فى تائيته من غلو فى وصفه للاتحاد بالذات الإلهية يجب تأويله بأنه رمز صوفى يعبر عن عجز صاحبه عن وصف الحال بالتعبير العادى فلجأ إلى لغة ضاقت عبارتها عن وصف التجربة الصوفية الفريدة، فاضطر إلى الرمز لضيق المقال عن وصف الحال، على حد التعبير الصوفى(١).

وقد اعتنى السلاطين المماليك بالمتصوفة عناية خاصة، فبنوا لهم الخوانق والربط والزوايا ويدل معنى كلمة الرباط، وأصلها الثغر فى دار الحرب، على الصلة المستمرة للمتصوفة بالجهاد(٢)، كما تدل كثرة الطرق الصوفية فى مصر فى العصر المملوكى على ازدهار التصوف فى مصر. وأهم هذه الطرق الصوفية، الطريقة الشاذلية، نسبة إلى مؤسسها أبى الحسن الشاذلى، والطريقة البرهانية نسبة إلى مؤسسها إبراهيم

---

(١) فصلت دراسة هذا الموضوع فى دراسة باللغة الإنجليزية بعنوان : Ibn Al-Farid's Mysticism in the Greater ode Rhyming in Ta وقد نشرت بمجلة جامعة اوساكا باليابان أثناء عملى أستاذا زائرا بها : "Journal of Osaka University of Foreign Studies, v.21, 1999, pp. 78-86. وراجع أيضا، محمود رزق سليم، عصر السلاطين المماليك، المجلد الثالث، ٦٠. وعبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية فى مصر، ١٠٧-١٠٨.

(٢) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ٦٥.

الدسوقى، والطريقة الأحمدية، ومؤسسها أحمد البدوى، وكان للصوفية مكانة كبيرة فى المجتمع، واحترام عظيم من قبل السلاطين المماليك[1]. وربما صدق التحول عن النهج السليم للصوفية، كما ذكره بروكلمان، على بعض الدراويش أو بعض أدعياء الصوفية الذين عمدوا إلى الدجل والشعوذة، خصوصا فى العصر العثمانى، وإن أنجب هذا العصر العثمانى أكبر صوفى مصرى فى عصره، وهو الشعرانى. وقد أسهمت مصر إسهاما واسعا فى بناء الحضارة الإنسانية منذ أقدم أزمانها بما تميزت به حضارتها الزراعية التى أمدها النيل، بروافده الخصبة، أعظم آياتها فارتقى فن المعمار وبناء الأهرامات وفن الملاحة وبناء السفن، وصناعات المعادن والخزف والنسيج وورق البردى،

---

(١) أشار محمود رزق سليم إلى دور المماليك فى إنشاء الخوانق والربط والزوايا، وقد بين تطور هدف هذه المؤسسات الدينية التعليمية الصوفية راجعه المجلد الثالث – ٥٩، ٦٠ وعبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية فى مصر، الفصل الخاص بالصوفية فى مصر ص ١٢٠ وما بعدها، وحديث محمد زغلول سلام عن الطرق الصوفية فى العصر المملوكى، وتبجيل سلاطين المماليك لمشايخ الصوفية واهتمامهم ببناء الخوانق لهم، وقد درس سلام أهم مشاهير الصوفية وشيوخ الطرق كالسيد أحمد البدوى، والشيخ "أبو" الحسن الشاذلى، وتلميذه "أبو" العباس المرسى، وتلميذ الأخير ابن عطاءالله السكندرى ومحمد ابن وفاء الشاذلى وغيرهم من أقطاب الطرق الصوفية فى مصر. راجع دراسته المهمة هذه، الجزء الأول من كتاب الأدب فى العصر المملوكى، من ص ٢٥٥ إلى ٢٧٥، وفى خطط المقريزى ذكر مفصل لها، الجزء الرابع، من ص ٢٧١ إلى ص ٣٠٦.

وأسهمت مصر بقوة فى نشأة العلم بمعناه العالمى سواء الهندسى أو الرياضى أو الطبى(١).

ويتوالى الغزو والاحتلال الأجنبى لمصر على مر العصور، قديما وحديثا، ولكنها تبقى مقبرة للغزاة، إذا يتفاعل المصريون مع ثقافات الغزاة، دون انمحاء فيها، وتظل الشخصية المصرية متمتعة بخصوصيتها، وأثرها فى الثقافات الغازية نفسها(٢).

وقد أخذ علماء مصر وأدباؤها فى تلقى الثقافة العربية الوافدة منذ الفتح العربى لمصر، فاستوعبوها واستفادوا منها، وبدأوا اسهامهم فى هذه الثقافة منذ منتصف القرن الثانى الهجرى، إذ أصبحت مصر من مراكز العلم فى العالم الإسلامى(٣).

وازدهرت العلوم والفنون فى مصر منذ العصر الطولونى الذى اهتم حكامه بالعلماء وشجعوهم واحتضنوهم، خصوصا أحمد بن طولون، حتى لقد بدأت الشخصية الأدبية المصرية،

---

(١) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ٦٩.

(٢) وتتبع جمال حمدان تاريخ مصر على مر العصور، وقرر أن الحضارة المصرية استمرت قوية مع تعاقب الغزاة، وضعف القوة السياسية، بل قد يمكن القول معه إن حضارات القوى الأجنبية الغازية صنعت، جزئيا، على أرض مصر، إما بالأخذ منها أو بالمشاركة معها، راجعه، شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان، عالم الكتب، القاهرة، د.ت، المجلد الثانى، ص ٤٣٣.

(٣) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ٧٢.

على سبيل المثال، فى التبلور حتى العصر الاخشيدى فظهر فـى الشعر المصرى الآراء المصرية، والحوادث المصرية التـى لا تصدر إلا عن قوم عاشوا فى مصر، على حد تعبير محمد كامل حسين، الذى رأى أن أثر مصر فى الشعر، منذ هـذه المرحلـة المبكرة من تاريخها، كان كبيرا، كما كان أثرهـا فـى العلـم كبيرا[١].

وكان هذا هو حال مصر فىالعصور التالية فقد كانت مصـر فيها مقصد العلماء من كل مكان يأتون إليها للتلمذة على أعلامها فى علوم العربية والعلوم الدينية، وغيرها. وقد ذاعت فى مصـر السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام، الذى سكن مصـر وتوفـى ٢١٨هـ، وقد هذب سيرة ابن إسحاق فصارت تنسب إليه[٢].

وعن ابن هشام انتشرت السيرة النبوية فى العالم الإسـلامى، وطبقت شهرتها الآفاق، وكان لمصر فضل إهدائها إلى العـالم، وتداولها إلى اليوم[٣]. وكان ممن وفد إلى مصـر "المسـعودى" المؤرخ المشهور، ومن مصر ذاعت كتبه التاريخية وفى مقدمتها

---

(١) فى الادب المصرى من الفتح الإسلامى إلى دخول الفـاطميين، مطبعـة الاعتمـاد، القاهرة، د.ت، ٢٦٥.

(٢) السيوطى، حسن المحاضرة، ج١، ٥٣١.

(٣) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ١٥١.

"مروج الذهب" وقد توفى فى مصر سنة ٣٤٦هـ[١].

وقد زخرت مكتبات مصر بالكتب فى كل علم وفن، ففى العصر الفاطمى، مثلا، اهتم الخلفاء الفاطميون بالمكتبات اهتماما عظيما، وقد تميزت مكتباتهم عن جميع مكتبات العالم الإسلامى فى ذلك الوقت، وقد وصف المقريزى خزانة الكتب الفاطمية بأنها كانت من عجائب الدنيا بما حوته من مجلدات فى كل فن من فنون العلوم الإسلامية، ذاكرا أنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها[٢]. وكانت دار العلم من مآثر الفاطميين، وهى تلك الدار التى أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ، وكانت جزءا من قصره "وقد حمل إلى هذه الدار الكتب من خزائن القصر التى للحاكم بأمر الله من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك"[٣].

وقد عدها شوقى ضيف جامعة كبرى ورجع إلى المقريزى

---

(١) المرجع السابق، ٧٥، وراجع بعض جوانب هذه الحركة العلمية الزاهرة فى مصر نفس هذا المرجع، ٦٩ وما بعدها.

(٢) المقريزى، الخطط، ج٢، ص٢٥٥ وقد فصل فى ذكر أهميتها ونفائس الكتب الموجودة بها، ص ٢٥٣، ٢٥٤ أيضا. وراجع فى ذلك أيضا محمد كامل حسين، فى أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربى، ط ثانية، القاهرة، ١٩٦٣، ٤٦-٤٧.

(٣) خطط المقريزى ، ج٢، ص ٣٣٤.

فى خططه لبيان أثرها فى ازدهار الحركة العلميــــة بمصـــر[١].
وفى العصر الأيوبى، ورمزه صلاح الدين الأيوبى، نجد اهتماما بالدراسات الدينية، خصوصا الحديث النبوى الشريف، فقد كــان صلاح الدين الأيوبى محبا للدراسات الإسلامية، وأضيفت هــذه المأثرة إلى جانب مآثره العديدة، فهو القائد الإســلامى العظيــم الذى دحر الصليبين فى حطين بعد أن عاثوا فى الأرض فسـادا، وقتلوا المسلمين دون تمييز بين الصغير أو الكبير، ودون رحمة بالنساء أو الشيوخ، ودنسوا القدس والمسجد الأقصى ولم يراعوا حرمة الدين أو المقدسات الإسلامية، وحرقوا الأرض والـــزرع وهدموا البيوت وروعوا الآمنين، وظهر منهم الفساد فـــى الـــبر والبحر، فأنقذ صلاح الدين بيت المقدس من أيديهم. وقد خصـــه ابن سعيد فى كتابه "المغرب فى حلى المغرب" القســم الخـــاص بالقاهرة بعنوان "النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة" الـــذى حققه حسين نصار بترجمة ضافية، بلغ عدد صفحاتها حوالــــى مائة صفحة من القطع الكبير، بين فيه نشأته الكريمة، وتربيتـــه تربية حميدة، وقد ورث عن أبيه محاسن الأخلاق، وقـــد كـــان

---

(١) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ٧٦ وخطـــط المقريـــزى، ج٢، ص ٣٣٤. وتسمى أيضا "دار الحكمة"، وقد وصف المقريزى ماصاحب إنشــــاءها مـــن حركة علمية زاهرة، ودور الحاكم بأمر الله فى تشجيع هذه الحركـــة وعلمائـــها ص ٣٣٤، ٣٣٥.

حسن العقيدة، محبا للعلم، يناقش أهله من كبار الفقهاء ويستفيد منهم فى تكوين ثقافة دينية أصيلة، كما كان شديد المواظبة على صلاة الجماعة، وكان يجب سماع القرآن الكريم، وأتقن حفظه، وكان شديد الرغبة فى سماع الحديث وقد تردد إلى الحافظ السلفى المحدث المشهور الذى سكن الإسكندرية سنة ٥١١هـ إلى أن توفى سنة ٥٧٦هـ[١]. وقد اشتهر صلاح الدين بالعدل والرحمة، ونصرة الضعيف، كما اشتهر بالجود والكرم، وكان صلاح الدين من عظماء الشجعان، "قوى النفس، شديد البأس، عظيم الثبات لا يهوله أمر"[٢]. وقد استولى حب الجهاد على قلبه، ولم يكن يشغله عنه شئ "حتى هجر فى محبة الجهاد وفى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه"[٣].

وقد كانت حياة صلاح الدين كفاحا وجهادا من أجل نصرة دين الله، وقد حفلت بالصبر على المكاره، كما تميزت أخلاقه بالحلم والعفو والمروءة[٤]. أما غزواته فقد حفل بها تاريخ مصر

---

(١) ابن سعيد، النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١١٤، وراجع أيضا من ص ١٠٧ إلى ص ١١٨.

(٢) المصدر السابق، ١٢٤، وراجع ، كذلك ١١٨-١٢٣.

(٣) المصدر السابق، ١٢٧.

(٤) المصدر السابق، ١٢٨-١٣٧.

والشام، ولهج بذكرها الأدباء والشعراء، وخصصت له الكتب والدراسات قديما وحديثا[1]. وفي وقعة حطين المباركة (٥٨٣هـ) قتل ملوك الفرنج وأسروا[2] . وقد صور ابن سعيد هذه الموقعة تصويرا حافلا ضافيا، وكذلك تحرير صلاح الدين لبيت المقدس منهيا ترجمته الرائعة له بذكر المدن والحصون

---

(١) راجع المصدر السابق من ص ١٣٨-١٥٢. وأهم المصادر التى أشادت بصلاح الدين، وما دار حول انتصاراته من أدب وشعر "كتاب الروضتين" لأبى شامة، "والفيح القسى فى الفتح القدسى" للعماد الأصفهانى، ومن أهم الكتب المعاصرة التى تناولت صلاح الدين الأيوبى وأدب الحروب الصليبية كتاب عبد اللطيف حمزة "أدب الحروب الصليبية" وغير ذلك كثير فى الشرق والغرب، وقد كتب ابن شداد سيرة صلاح الدين. وقد قام قاسم عبده قاسم بدراسة ضافية لدور صلاح الدين الأيوبى فى الحروب الصليبية راجعه فى كتاب "فى تاريخ الأيوبيين والمماليك" دار عين، ط أولى، القاهرة، ٢٠٠١ من ص ١١ إلى ص ٤٩، وتحقيقه النصر فى معركة حطين واسترداده للقدس تتويجا لهذه الجهود ونتيجة لتوحيد القوى السياسية والعسكرية فى المنطقة العربية ضد الصليبيين من ص ٥١-٦٠ وقد جاء ذلك النصر المبين استمرارا لجهود عماد الدين زنكى وابنه نور الدين، ص ٧٣، وقد وضح قاسم الدور البطولى لصلاح الدين، ودوره التاريخى العظيم فى مصر والشام، وقام بدراسة شخصيته القائدة التى أهلته لبناء هذه الدولة الكبرى التى كان هو حاكمها العظيم ٧٤-٧٦ . وقد ذكر قاسم الجهود الأولى لتوحيد القوى العربية الإسلامية بقيادة عماد الدين زنكى، ثم نور الدين محمود ثم درس دور صلاح الدين الأيوبى لكى يتوج هذه الجهود لتوحيد الصف العربى وهزيمة الصليبيين فى حطين فى دراسة ضافية للحروب الصليبية فى كتابه الهام "ماهية الحروب الصليبية" عالم المعرفة، العدد ١٤٩، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مايو ١٩٩٠، راجع من ص ١٣٧ إلى ص ١٤٦.

(٢) ابن سعيد، النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة، ١٥٢.

التى فتحت على يديه[١]. وقد أشرنا، كذلك، إلى اهتمام صـــلاح الدين بالعلماء، وإقامته للمدارس الكثيرة.

وقد كان بعض خلفاء الأيوبيين ووزرائهم ممن ساروا ســيرة صلاح الدين فى اهتمامهم بإقامة المدارس، ورعايـــة النشــاط العلمى الذى ماج به عصرهم[٢]. وقد تنامى عدد هذه المـــدارس إلى درجة جعلت ابن بطوطة الذى زار القاهرة والفسطاط ســنة ٧٢٦هـــ، فى عهد الناصر بن قلاوون يذكر أن المدارس بمصر لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها[٣].

وقد فصل محمود رزق سليم العوامل التى أدت إلـــى نشــاط الحركة العلمية فى العصر المملوكى الذى ذكر أنه أكثر نشــاطا وأضخم إنتاجا من الناحية العلمية (وأن مصر استطاعت – فيه– أن تكون لنفسها ثقافة تحمل طابعها، تأثرت بها البلاد الإســلامية الأخرى، وبخاصة بلاد الشام"[٤] . وقد جعل محمود رزق ســليم العوامل المؤثرة فى نشاط الحركة العلمية فى العصر المملوكـــى خارجية، وداخلية. أما الخارجية فقد ذكر منها وقوع كثير مـــن

---

(١) المصدر السابق، ١٥٣-١٨٢.

(٢) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ٨٠-٨١.

(٣) المرجع السابق، ٨٣-٨٤.

(٤) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، المجلد الثالث، ص١٦.

البلاد الإسلامية فى يد المغول فاجتهد علماء المسلمين فى إحيـاء العلوم والمعارف تدعيما للممـــاليك فــى الــذود عــن الارض والعرض والدين إزاء جحافل التتار[1].

ومن تلك العوامل أيضا قتل التتار لكثير من العلماء، وإتلافهم للكتب والمكتبات وبذلك "ضاعت على الدين ذخـــائره، وعلـــى العلوم والآداب نفائسها، وفقدت العربية، إلى الأبد، آلافـــا مـــن مؤلفات بنيها"[2]. وقد فر العلماء من وجه التتار، ووجدوا الأمان فى مصر بعد أن لجأوا إليها، واستقروا فيها فاستشعروا ضخامة المسئولية الملقاة على عاتقهم من وجوب إعادة بنـــاء الصـــرح العلمى الذى انهار.

وكان وفود العلماء والأدباء إلى مصر والشام عاملا مهما من عوامل تحقيق هذا الهدف ومنهم ابن خلكان الإربلى وابن مـــالك الأندلسى، وابن ابى حجلة المغربى، وابن منظـــور الافريقـــى، وابن خلدون المغربى، وغيرهم كثير[3]. وقد أثر زوال الخلافـــة العباسية ، وكانت ، على علاتها، رمزا للدولة الإسلامية، تـــأثيرا كبيرا فى المسلمين فتأجج حماسهم الدينى، وقد أعـــاد الظـــاهر

---

(١) المرجع السابق، ١٧.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق، ١٨.

بيبرس الخلافة العباسية فى مصر لتكون إحياء رمزيا للخلافة التى زالت ببغداد. وقد أدى ذلك إلى نشاط الحركة العلمية التى رفدتها عوامل داخلية منها غيرة السلاطين والأمراء على الدين، وقيامهم بالذود عنه، فكافحوا التتار كفاحا طويلا، وقامت إلى جانب ذلك حركة علمية ودينية ولغوية هدفت إلى إحياء العلم والدين، وإنعاش الروح الفكرية بنشر التعليم والتأليف ومواصلة البحث والاطلاع. وقد لاقى علماء الدين منهم، خصوصا، إكبارا وإجلالا من سلاطين العصر المملوكى، فازدادت مكانتهم عند العامة والخاصة، وكان منهم من ضرب به المثل فى الزهد والقناعة والورع والثبات على الحق والتفقه فى الدين والتعمق فى العلم والشغف بالبحث، والجد فى التأليف فكانوا قدوة للناس وملاذا لهم فىالفتاوى التى يجيبون بها عما يحير الناس فى أمور دينهم ودنياهم، وكانت هذه الفتاوى نفسها مصدرا لانتعاش العلوم الدينية بما كان يدور خلالها من محاورات وخلافات بين العلماء[1]. وقد كان إنشاء المدارس، فضلا عن العناية باللغة العربية، من أهم العوامل التى أدت إلى نشاط الحركة العلمية فى العصر المملوكى. فقد كانت هذه المدارس أشبه بمعاهد أو جامعات تعليمية، يفئ إليها كل طالب علم كبيرا أو صغيرا،

---

(١) انظر المرجع السابق، وتفاصيل أخرى، ١٩-٢٦.

عالما أو جاهلا، فيجد الرعاية الكاملة والتسهيلات الكبيرة التي تعين على طلب العلم.

ولم يقتصر إنشاء دور التعليم على مصر والإسكندرية، بل أنشئ عدد منها فى المدن المصرية الأخرى(1). ومن أهم هذه المدارس فى العصر المملوكى، إلى جانب المدرسة الظاهرية التى أنشأها الظاهر بيبرس، وتحدثنا عنها، المدرسة المنصورية التى أنشأها المنصور قلاوون لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة سنة ٦٨٤هـ، وقد درس فيها إلى جانب المذاهب الأربعة الحديث والتفسير كما درس فيها الطب، وعنى باختيار مدرسيها عناية تامة(2). وقد أقام المنصور قلاوون بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم، وبنى بجانبها مكتبا لتعليم

---

(1) وقد بين محمود رزق سليم، معتمدا على المصادر التاريخية، نظم الدراسة فى هذه المعاهد، متحدثا عن الطلاب، وعدم تكلفتهم فى التعليم شيئا، وعن الأساتذة، ورعاية الدولة لهم، وعن الإجازات العلمية وهى تشبه الشهادات الدراسية الآن، وعن نظام المعيدين، والمعيد – وهو الطالب النابه – الذى يعين مساعدا للأستاذ، وعن نظام إلقاء الدروس بما يشبه المحاضرات الآن وغيرها كثير راجع مثلا، المجلد الثالث، ص ٢٨– ص٣٠. وراجع ايضا، عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية، ص١٦٩– ١٧٤، وفيها يوضح نظام التعليم فى هذه المدارس، وهيئة التدريس ومواد التعليم والثقافة فيها وأهمها الفقه والحديث والعلوم الدينية الأخرى والأدب والعلوم الرياضيات وغيرها.

(2) وقد رجع محمود رزق سليم إلى ابن دقماق فى كتابه (الانتصار) لبيان عدد المدارس المصرية فى غير القاهرة والإسكندرية، وأضاف إلى ذلك أن عدد المدارس التى تدرس بها العلوم الدينية وعلوم العربية فى مصر المملوكية عدد ضخم، المرجع السابق، المجلد الثالث، ٣٠–٣١.

أيتام المسلمين كتـــاب الله تعـــالى، وأجـــرى لـــهم الجرايـــات والكسوة[١].

وقد بنى أمامها قبة عظيمة خصصـــت لـــدروس الحديـــث والتفسير، وأشتملت مكتبة هذه المدرسة على كتب عظيمة فـــى شتى مجالات العلوم والأدب، وقد أنفق المنصور قلاوون علـــى ذلك كله، معتنيا بشكل خاص بالإنفـــاق علـــى الأيتـــام، وذوى الحاجة، وكذلك فعل ابنه الناصر فى بنائه للمدرسة الناصرية[٢]. وإلى جانب هذه المدرسة المنصورية بنى المنصـــور قـــلاوون، كذلك، المارستان المنصورى عام ٦٨٢هـــ، "وهو بناء ضخـــم فسيح الأرجاء يحتوى على مستشفى للمرضى ومدرسة للطـــب، وهو من أعظم المؤسسات التى خلدت ذكر المنصور، ومن أهـــم دور التعليم بمصر حينذاك، ويندر أن تجد لـــه نظـــيرا فىتلـــك العصور الخالية"[٣]. وكان بهذا المارستان قسم للرمـــد وآخـــر

---

(١) المرجع السابق، مجلد ٣، ٤٢. المقريزى ، الخطط، ج٤، ص٢١٨. وقـــد وصـــف المقريزى القبة المنصورية بأنها من أعظم المبانى الملوكية راجع، كذلـــك مـــن ص ٢١٩-٢٢١ للتفاصيل.

(٢) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ٨٤. وقد ذكر السيوطى معلومـــات تاريخية عن المدرسة المنصوريـــة، حســـن المحـــاضرة، ج٢، ٢٦٤، والمدرســـة الناصرية ص ٢٦٥، وخطط المقريزى ، ج٤، ٢٢١ وقد وصفها بأنـــها مـــن أجـــل مبانى القاهرة، وأن بابها من أعجب ما صنعه البشر، وقد درس بـــها الفقـــه علـــى المذاهب الأربعة، وأنشئ بها مكتبة عظيمة ص ٢٢٢.

(٣) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ٤٤.

للجراحة وآخر لأمراض النساء، وغيره، وقد جهز بصيدلية، وزود بما يحتاج إليه من أدوات وأسرة، وأسست به قاعة تلقى بها دروس الطب، وضمت إليه مكتبة بها كتب قيمة[1].

وقد قال ابن تغرى بردى فى هذا المارستان : "وهذا البيمارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا، شرقا ولا غربا"[2]. وقد عكس هذا المارستان – بكلية الطب التى كانت ملحقة به – التقدم العلمى للطب فى مصر فى العصر المملوكى[3]. وقد عمل بهذا المارستان ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ)، وهو علم عصره فى الطب والعلاج والعلم، وصاحب الاكتشاف الطبى الخطير الذى لم يكتشفه أحد من الأطباء من جالينوس إلى عصره، وهو اكتشافه للدورة الدموية، وهذا شبيه بمارستان القاهرة الذى أنشأه صلاح الدين وكان أكبر معهد لتدريس الطب وتخرج فيه ابن أبى اصيبعة (ت ٦٦٨هـ) وهو صاحب كتاب "طبقات الأطباء" وهو كتاب نفيس اشتمل على ترجمة نحو أربعمائة طبيب

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، وقد وصفه المقريزى وصفا مفصلا، مبينا أقسامه الطبية، ورعاية القائمين عليه للمرضى، راجعه الخطط، ج٤، ٢٥٩ وما بعدها.

(٣) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ١٠٠-١٠١.

عربى[1].

وقد قل أن نجد مدرسة أو مسجدا أو دارا تعليمية فى العصر المملوكى دون أن تزود بمكتبة زاهرة بنفائس الكتب. وكان بعض سلاطين المماليك مغرما باقتناء الكتب النادرة كالناصر حسن، وقد ذكر ابن إياس أن أحد القضاة العلماء، وهو نجم الدين يحيى بن حجى، (المتوفى سنة ٨٨٨هـ) قد وجد عنده بعد وفاته، أكثر من ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة[2].

ولاشك أن لانتشار تلك المكتبات دور كبير فى النهوض العلمى، وازدهار حركة العلم والتأليف. وقد أدى تشجيع العلماء فى العصر المملوكى إلى كثرة التأليف، والإجادة فيه، نظرا لتنافس العلماء. ومما جذب الطلاب إلى دور العلم، وحببهم فيها إجراء الرواتب لهم وتهيئة المساكن، وتزويدهم بالطعام والكسوة. وكان من أهم نتائج هذا النشاط العلمى كثرة العلماء والأدباء فى كل المجالات، فماجت مصر بالمؤلفين، وزخرت مكتباتها بالعدد الجم الغفير من الكتب فى كل فن وعلم، فحملت للإنسانية زادا

---

(١) المرجع السابق، ١٠٠-١٠٢.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢٠١. ومحمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث ، ٦٧. وقد فصل ذكر المكتبات التى كانت فى العصر المملوكى من ص ٦٧ إلى ص ٧٠ معتمدا على خطط المقريزى.

وفيرا من المعارف والعلوم[1]. وقد أشار محمود رزق سليم إلى أن كتب التاريخ التى ألفت فى هذا العصر، وهى كثيرة، كوفيات الأعيان لابن خلكان، وخطط المقريزى وسلوكه، والضوء اللامع للسخاوى وغيرها قد كانت تجسيدا لروح عصرها، وتميزت بروح النقد، خصوصا تاريخ ابن إياس "بدائع الزهور". وقد تميزت كذلك شخصية كل مؤلف، واتسع مجال دراسة التاريخ، خصوصا فى كتب تراجم الأعلام فى وفيات ابن خلكان، أو درر ابن حجر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، أو ضوء السخاوى اللامع فى أعلام القرن التاسع، أو غيرها وهو كثير[2]. ويعنى هذا أن المؤرخين المصريين قد احتفلوا بتسجيل تاريخ مصر منذ ابن عبد الحكم الذى توفى بالفسطاط عام ٢٥٧هـ ومن أشهر مؤلفاته كتابه (فتوح مصر)، والكندى المولود بمصر سنة ٢٨٣هـ وكتابه (الولاة والقضاة) وعلى هذين الكتابين اعتمد كثير من المؤرخين من بعدهما كابن زولاق (ت ٤٥٤هـ)، وابن دقماق (ت ٨٠٩هـ) والمقريزى وابن تغرى بردى

---

(١) محمود رزق سليم، المرجع السابق، ٨١-٩٠.

(٢) المرجع السابق، ٩٢-٩٦، وقد أورد محمود رزق سليم ثبتا ببعض كتب التراجم التاريخية، ارجع إليه من ص٩٦-١٠٥. وقد بلغ عدد هذه الكتب ثلاثة وثمانين كتابا.

والسيوطى وغيرهم[1]. وقد تنوعت طبقات مؤرخى مصر فـــى العصر المملوكى، فقد عنيت طبقة منهم بكتابة السير، وأهمـــهم ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين فى كتابه "النوادر السلطانية"، ومحى الدين عبد الظاهر فى كتابته لسيرة الظاهر بيبرس.

أما كتاب التراجم فهم نوعان، نـــوع كتـــب فـــى الـــتراجم الإسلامية عامة مثل ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) والقفطـــى فى (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) وابن أبى اصيبعة فى كتـــاب (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء). ونوع ثان كتب أصحابه فـى التراجم المصرية خاصة مثل الأدفوى فى "الطالع السعيد"[2] إلى جانب الطبقة الغالبة من المؤرخين المصريين الذين عنوا بتاريخ مصر خصوصا، على نحو ما قدمنا.

وقد الفت فى تاريخ مصر موسوعات تاريخية ضخمة جامعة لتاريخ مصر وتاريخ قاهرتها، عد منـــها محمـــود رزق ســـليم حوالى عشرين موسوعة منها السلوك لمعرفـــة دول الملـــوك للمقريزى، والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقـــاهرة لابـــن تغرى بردى، وحسن المحاضرة للسيوطى، وبدائع الزهور فـــى

---

(١) عبداللطيف حمزة، الحركة الفكرية فى مصر، ٢٨٨-٢٩٠.

(٢) المرجع السابق، ٢٩٣-٢٩٥.

وقائع الدهور لابن إياس وغيرها كثير[1]. هذا غير الكتب التـى ألفت فى تاريخ المدن والأمصار الأخرى وكتب التاريخ العـام، وتاريخ الخطط والآثار التى تحدثت عن البلاد والمدن والمواضع فوصفت بناءها وتاريخ هذا البناء فهى كتب جغرافية تاريخيـة درة تاجها خطط المقريزى. هذا إلى جانب كتابـات تاريخيـة أخرى، قدمت صورة مثالية للحياة السياسية ككتاب "معيد النعـم ومبيد النقم" لبهاء الدين السبكى[2]، وكذلك تدوين بعض علمـاء هذا العصر لرحلاتهم وتخصيصهم لكتب كثيرة لهذا الغرض[3].

وفى هذا السياق الحضارى الثقافى العلمى لمصـر العربيـة الإسلامية على مر عصورها، ألفت الموسوعات الكبـيرة فـى العصر المملوكى مثل "نهاية الأرب" للنويرى فـى أكـثر مـن ثلاثين مجلدا فى فنون مختلفة، وهو أحد الكتب الجامعة الهامـة التى تعد عمدة بين الكتب، اعتمد عليه كثـير مـن المؤرخيـن والأدباء قديما وحديثا كما قدمنا. وقد جعل النويرى كتابه خمسـة فنون، كل فن منها يحتوى على خمسة أقسام:

- الفن الأول فى السماء والآثار العلوية، والأرض والمعـالم السفلية.

---

(١) عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ١٠٨-١١٠.

(٢) شوقى ضيف عصر الدول والإمارات، مصر ، ١٥٦.

(٣) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ١١١-١٢٣.

- والفن الثانى: فىالإنسان وما يتعلق به.
- والفن الثالث: فىالحيوان الصامت.
- والفن الرابع : فى النبات.
- والفن الخامس: فى التاريخ، وهو أطول فنون الكتاب[1].

وقد ألم فى عرض لهذه الفنون بأكثر المعارف الإنسانية فى عصره، ومزج فيه العلوم بالآداب، فدعم العلوم بما ورد فيها فى القرآن والحديث والأمثال والأشعار. وتحدث النويرى عن نظام الحكومة، وعن الملك والسلطان والوزارة والجيش وقد حشد لموسوعته هذه كل ما نما إليه علمه من مصادر[2]. ونهاية الأرب "أشبه بدائرة معارف تناول فيه النويرى علوم الفلك والجغرافيا والتاريخ الطبيعى والحيوانات والزواحف والطيور والصيد والنباتات والثمار والأزهار والإنسان وعاداته، وطرق الحكم ووظائف الدولة وشئون السياسة وتاريخ الدولة العربية حتى عصره"[3].

وقد وصفه محمود رزق سليم بأنه كتاب علم وأدب وفن

(١) راجع أقسام هذه الفنون بالتفصيل : "نهاية الأرب فى فنون الأدب" مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٣، ج١، من ص ٤ إلى ص٢٥.

(٢) عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية فى مصر، ٣١٧-٣٢٠.

(٣) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ٨٦.

وشعر ولغة وتقويم وتاريخ واجتماع ووصف إنسان ونبات وحيوان[1]. ويعد محمد زغلول سلام "نهاية الأرب" من أشهر موسوعات العصر المملوكى، تعدى تناوله الأدب بمفهومه المحدد إلى المفهوم الواسع الذى ضم كثيرا من المعارف الإنسانية. ويتصف النويرى فى هذا الكتاب بروح ناقدة وتحليل مدقق لما يرد فيه من أخبار أو حقائق علمية يردها إذا خالفت العقل أو الملاحظة أو التجريب. ويعد كتاب "نهاية الأرب" مصدرا هاما لكثير من المعلومات التى لا نجدها فى غيره، ويتوقف فى كثير من مواضع الكتاب عند معالم مصر وآثارها وعجائبها وفضائلها، وأول معالمها النيل، وأظهر آثارها الأهرام وأبو الهول، ومن عجائبها منارة الإسكندرية"[2]. هذا إلى جانب القيمة الأدبية لنهاية الأرب، وقد ترجم فيه النويرى لأشهر كتاب عصره ولغيرهم ممن لم يشتهروا، وقد رجع إلى المصادر الأدبية الهامة ولخص بعض المؤلفات النادرة التى لم تصل إلينا[3].

---

(١) عصر سلاطين المماليك، المجلد الخامس، وقد نشر سنة ١٩٥٥، بمكتبة الآداب، ص ٣٤٧.

(٢) محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى، فنون النثر وأعيان الكتاب، الجزء الثانى، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت، ص ٣٦٣.

(٣) المرجع السابق، ٣٦٥.

وقد عدته أمنية جمال الدين خير مثال للتأليف الموسوعى فى العصر المملوكى، وقد رجعت إلى كراتشكوفسكى الذى رأى أن هذه الموسوعات تعد خير ما أنتجه ذلك العصر، وقد ساعد على نمو هذه الظاهرة فى العصر المملوكـــى، وجـــود طائفـــة مـــن الشخصيات الأدبية والعلمية الفذة استطاعت أن تستغل الوســـط العلمى السائد فى ذلك الوقت فى مصر بما تميز به مـــن تعـــدد المعارف الإنسانية، وكان النويرى هو صاحب أول موسوعة فى ذلك العصر تبعه ابن فضل الله العمرى فى "مسالك الأبصـــار" وغيره[١]. أما شهاب الدين ابن فضل الله العمرى (المتوفى ســـنة ٧٤٨هـ) فقد الف موسوعة أخرى هى كتاب "مسالك الأبصـــار فى ممالك الأمصار" وبه بحوث فى الجغرافيا ونظرياتها العلميـة والتاريخ وتراجم الأعلام والتـــاريخ الطبيعـــى[٢] وفـــى هـــذه الموسوعة وصف لأحوال كل إقليم، وللأرض وما فيـــها ومـــن فيها، وقد بذل فى تحقيق هذا الكتاب وتدقيقه كل جهده ووقتـه[٣]. ومسالك الأبصار موسوعة جغرافية، فقد كان صاحبـــها واســـع الاطلاع وقد قسمه قسمين : الأول فى وصف الأرض، والثـــانى

---

(١) أمنية محمد جمال الدين، النويرى وكتابه "نهاية الأرب فى فنون الأدب"، دار ثـــابت، ط أولى، القاهرة، ١٩٨٤، من ص ٩٩-١٠٣.

(٢) محمود رزق سليم، المرجع السابق، المجلد الثالث، ١٧١.

(٣) المرجع السابق ، المجلد الخامس ، ٣٤٨.

فى سكان الأرض، والقسم الأول منهما نوعان أولهما المسالك وثانيهما الممالك، والمسالك وصف لهيئة الأرض وذكر للأقاليم والبحار وما يتعلق بها وذكر للطرق وغيرها، والممالك صف لممالك الإسلام وحدها. وابن فضل الله عالم من علماء العصر المملوكى، مزج العلم، كما هى عادة مؤلفى العصر المملوكى، بالأدب، وحشد فى كتابه هذا معلومات جغرافية كثيرة، وقد عنى بمصر عناية خاصة، من جميع جوانبها، ومنها جانب الشعر ، "وقد أمدنا بقائمة طيبة لشعراء المصريين بلغ مجموعهم نحوا من خمسين وأولهم تميم بن المعز"[١].

وقد أجل العلماء هذا الكتاب، قديما وحديثا، ووضعوا ابن فضل الله العمرى فى مكان رفيع، أهلته له شخصيته الأدبية الفذة، وقد جعلوه ندا للقاضى الفاضل، وقال الصفدى عن مسالك الأبصار "وهو كتاب حافل ما أعلم أن لأحد مثله[٢]" وهو دائرة معارف فى جغرافية العالم العربى والعلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وتاريخ الدولة العربية وأعلامها فى الشعر والنثر على مر العصور[٣]. والعمرى لا يتحدث فى هذا الكتاب عن

---

(١) عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية فى مصر، ٣٢٤-٣٢٧.

(٢) محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى، ج٢، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ٦٧ – ص ٧١.

(٣) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر ، ٨٦.

"جغرافية العالم الإسلامى والعربى ومملكة مصر أو الممـــــاليك حديثا جغرافيا صرفا، وإنما يتحدث عن جغرافية المكان بوصفه الجغرافى والسياسى والاجتماعى أو البشرى"(١).

ويعد كتاب المسالك، والباب الخاص بالدولة المملوكية منــــه خصوصا، أهم أجزاء الكتاب على الإطلاق، لأنه كان المصــــدر الرئيسى لكل أولئك الذين كتبوا من بعده عن تلك الحقبة الذهبيــة فى تاريخ دولة المماليك بمصـــــر والشـــام علـــى حـــد تعبــير كرافولسكى التى نشرت القسم السادس الخاص بالدولة المملوكية من هذا الكتاب(٢).

ويصور الكتاب، فى رأيها، دولة الإسلام الكبرى فى مصـــر والشام بزعامة المماليك، وفى عصرهم الـــذى شـــهد ازدهـــار الدراسات الجغرافية حول دار الإسلام التـــى أصبحـــت مصـــر قلبها(٣). وتتفق كرافولسكى مع أيمن فؤاد الـــذى حقـــق القســـم

---

(١) محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى، ج٢، طبعة منشأة المعارف، ٣٦٧.

(٢) دوروتيا كرافولسكي، محققه القسم السادس من كتاب "مسالك الأبصار فـــى ممـــالك الأمصار"، لابن فضل الله العمرى ، دولة الممـــاليك الأولـــى، ط أولـــى، المركـــز الإسلامى للبحوث، بيروت، ١٩٨٦، ص٩، هذا وقد نشرت نفس المحققة قسما آخـــر من هذا الكتاب عن قبائل العرب بنفس دار النشر، سنة ١٩٨٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٢، ومحمد زغلول سلام، الأدب فى العصـــر المملوكـــى، ج٢، ص ٣٦٨، ٣٦٩.

السادس أيضا، قبلها بسنة، ويعد أيمن فؤاد الموسوعات أهم ما انتجه عصر سلاطين المماليك، كما يعد الباب السادس من "مسالك الأبصار" أهم أبوابه حيث يرى أن المعلومات التى يظفر بها هذا الباب لا تستند فقط على الوثائق الرسمية التى أطلع عليها المؤلف، بل على معرفته المباشرة بمعظم ما سجله فى هذا الباب[١].

أما المقريزى، فإلى جانب ما ذكرناه، فقد اشتهرت كتبه التاريخية بطرافة الموضوعات "مع الحرص على الاستيعاب وكشف الخفى الدقيق من اجتماعيات ونظم إدارية"[٢]. وموسوعته الكبرى "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" المعروفة "بالخطط" موسوعة زاخرة بوصف مصر ومدنها وأنهارها ومبانيها الشهيرة، وشوارعها ومساجدها ومدارسها وكنائسها ودياراتها وجبالها وجزائرها وبحيراتها وبركها وبساتينها وغيرها، وهو صورة لنشاط فن كتابة التاريخ فى العصر المملوكى كما أشرنا إليه، ومن هذا الكتاب استقى على

---

(١) أيمن فؤاد محقق القسم السادس من كتاب "مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٨٥، ص٧م، وراجعه ، كذلك ، ص ١١م، ١٢م، ١٦م، ١٧م، وقد قام بتحقيق القسم الخاص باليمن من هذا الكتاب أيضا.

(٢) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ٩٣.

مبارك مؤرخ الخطط التوفيقية فى عصرنـــا أكـــثر معلوماتـــه. والخطط عمدة كثير من الباحثين فى تاريخ مصر[١]، وهو دائرة معارف لمصر وجغرافيتها وخططـــها وتاريخـــها وحضارتـــها وآثارها وأعيادها وأحوالها الاجتماعية[٢]. وقد توجت أمثال هـذه الموسوعات، ظاهرة فكرية، للحركة العلمية المثمرة فى مصـــر فى العصر المملوكى بمؤلفات قيمة فى علوم اللغة والنحو وأهـم أعلامها فى العصر الطولونى عالم مصرى ولغوى ونحوى كبير هو ولاد التميمى[٣]. واشتهر ابو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـــــ) بشرحه للمعلقات الجاهلية. وابن برى (ت ٤٩٩هـــــ) الإمـــام المشهور فى علم النحو واللغة والرواية والدراية، على حد تعبير ابن خلكان[٤]، وقد توجت هذه الحركة العلمية اللغوية[٥] بتـــأليف

---

(١) المرجع السابق، ١٢٠-١٢١.

(٢) شوقى ضيف ، عصر الدول والإمارات، مصر، ١٠٦-١٠٧.

(٣) عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية فى مصر فى العصريـــن الأيوبـــى والمملوكـــى الأول، ٢١٦. وشوقى ضيف، المرجع السابق، ١٠٩.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عبـــاس، دار الثقافـــة، بيروت، د.ت، المجلد الثالث، ص١٠٨، و عبد اللطيف حمزة، المرجع الســـابق، ٢١٨، وكذلك نجد ابن الحاجب المولود بمصر أواخر القرن السادس الهجرى، وكـــان اول نحـــوى بمصر نزع بالنحو نزعة فلسفية، راجع عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ٢٢١.

(٥) راجعها بالتفصيل شوقى ضيف، المرجع السابق، ١٠٨-١١٤. ومحمود رزق ســـليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ١٥٢-١٥٥. وعبد اللطيف حمزة، الحركـــة الفكرية ، ٢٣٦-٢٤٥.

ابن منظور (ت ٧١١هـ) لمعجم "لسان العرب" وهو أكبر معجم لغوى عربى. وقد مثل معاجم اللغة فى العصر المملوكى، وقد كانت إلى الموسوعة او "دائرة المعارف" أدنى منها إلى المعجم بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة(١). ويعده حسين نصار مثلا لاتساع المواد وكثرة المراجع وظهور شخصية مؤلفه والإكثار من المترادفات والنوادر والشواهد من القرآن والحديث وتلك الظواهر بارزة كل البروز فيه(٢). وقد كانت لهذه المعجم قيمة كبيرة فى جمع اللغة، وقد جمع مادته الغزيرة من تهذيب الأزهرى، ومحكم ابن سيده وصحاح الجوهرى، وحواشى ابن برى ونهاية ابن الأثير(٣).

وقد استطرد ابن منظور فى شرح المادة اللغوية، وتوسع فيها، شكلا من الأشكال الموسوعية لمؤلفات العصر المملوكى. ويتسم هذا المعجم بالاستقصاء والكشف عن الأمثال العامة والشواهد والأشعار الصعبة والأراجيز، خصوصا اراجيز رؤبة

---

(١) عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ٢٣٦.

(٢) حسين نصار، المعجم العربى، نشأته وتطوره، مكتبة مصر، القاهرة، ط ثانية، ١٩٦٨، ج٢، ٥٦٩.

(٣) المرجع السابق، ٥٤٤، وعبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية، وأضاف إليه "مخصص" ابن سيده، راجعه ص٢٤٣.

والعجاج [1].

وقد كانت نهضة الدراسات النحوية واللغوية في العصر المملوكي، وما قبله من العصور في مصر، متناغمة مع نهضة الدراسات الدينية، وكان الاهتمام بهما كبيرا، وقد سجل محمود رزق سليم أهم نتاج العصر المملوكي في مجال النحو والصرف واللغة، وأهمه كتب ابن هشام (جمال الدين عبدالله بن يوسف) المتوفى سنة ٧٦١هـ وهو أكبر نحوي أنجبته مصر وقد بلغ إعجاب معاصريه من أهل اللغة والنحو به إلى حد وصفهم له بأنه أنحى من سيبويه، وكتبه النحوية مشهورة، وأهمها "مغني اللبيب" و"شذور الذهب" و "قطر الندى"[2]. وابن هشام، كما يقول عبد اللطيف حمزة، عالم يفخر به العصر المملوكي كله، وفيه يقول ابن خلدون : " ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة ... فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة... وكانه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني، واتبعوا مصطلح

(١) عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية، ٢٤٤.

(٢) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ١٥٢ وما بعدها. وشوقي ضيف ، عصر الدول والإمارات، مصر، ١١٩.

تعليمه، فأتى من ذلك بشـــئ عجيـــب دل علـــى قـــوة ملكتـــه واطلاعه"(1).

وقد انفرد ابن هشام، على حد تعبير ابن خلـــدون، أيضـــا، "بالفوائد الغريبة والمباحث الدقيقـــة، والاســـتدراكات الغريبـــة، والتحقيق البارع، والإطلاع المفرط، والاقتدار على التصرف فى الكلام، والملكة التى كان يتمكن من التعبير بها عن مقصوده بما يريد مسهبا وموجزا"(2). وقد امتازت كتب ابن هشام بـــالوضوح أولا وبالدقة ثانيا وزادت مصنفاته عن العشرين(3).

ويعد جلال الدين السيوطى بغزارة إنتاجه، عالما موســـوعيا جليلا، وظاهرة فريدة فى الثقافة العربية الإسلامية، وقـــد كـــان علما ومرجعا فى علوم اللغة(4). وقد بلغ النشاط اللغوى ذروتـــه الرفيعة فى مصر إذ كان "أغزر العلمـــاء المصريين، زمـــن المماليك بعامة، تأليفا وتصنيفا فى جميع الميـــادين الإســـلامية

(1) ابن خلدون ، المقدمة، تحقيق على عبد الواحد وافى، لجنة البيان العربى، ط أولـــى، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٢، ج٤، ص١٢٥٧- ص ١٢٥٨. وراجع عبـــد اللطيـــف حمزة، الحركة الفكرية ، ٢٢٨.

(2) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية ، ٢٢٨- ٢٢٩، نقلا عن ابن خلدون.

(3) المرجع السابق، ٢٢٩.

(4) مقدمة مصطفى الشكعة لكتابه "جلال الدين السيوطى، مســـيرته العلميـــة، ومباحثـــه اللغوية، البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٨١، ص أ ، هـــ.

واللغوية"[1]. وكان السيوطى عالما من علماء اللغة المبرزين ، له شخصيته المتميزة فى الدراسات اللغوية والنحوية فى عصره، وله كتب كثيرة فيها[2]، وقد كان له منهج صقله اطلاعه الغزيو على إنجازات كبار اللغويين والنحويين الذين سبقوه وكان تأخره، مولدا، قد مكنه من ذلك، فانتفعنا بما استقى منه من مصادر اللغة والنحو والصرف التى كان له دور كبير فى الحفاظ على نماذجها[3]. وقد كان علم اللغة عنده مرتبطا بالقرآن الكريم والحديث الشريف والفقه والأصول والقراءات والتجويد وغير ذلك من العلوم الدينية[4]. ويعد "المزهر فى علوم اللغة" من أنفس كتب اللغة وأغناها "ذلك أن السيوطى قد اعتمد فى تأليفه على مصادر كثيرة من كتب اللغة التى كانت متاحة فى أيامه ثم فقدت بعد ذلك فلم تصل إلى أيدينا"[5].

وقد درس السيوطى فى المزهر "كل ما اتصل باللغة من علوم وضعت لمعرفة الصحيح وغير الصحيح والمعرب والمولد والاشتقاق والمشترك والأضداد والمترادف والقلب والنحت

---

(١) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات،مصر ، ١١٤.

(٢) عددها الشكعة، المرجع السابق، ١٣٤-١٣٥.

(٣) المرجع السابق، ١٤٩-١٥٠.

(٤) فصلها الشكعة، المرجع السابق، ١٥٠-١٦٣.

(٥) المرجع السابق، ١٦٧.

والإتباع والإبدال، وغير ذلك من علوم اللغة، ومسائلها الدقيقة"[١].

والكتاب فريد فى أبوابه وقد أضاف السيوطى فيه محاولته الخصبة فى تطبيق علم مصطلح الحديث وما وضع فيه لروايته من أصول على اللغة وروايتها، وقد جعله شوقى ضيف أجل المصنفات اللغوية فى التراث العربى على الإطلاق"[٢]. وقد قام الشكعة بدراسة هذا الكتاب القيم دراسة ضافية، موضحا منهجه فى تأليفه، خصوصا التزامه بمنهج علوم الحديث الذى طبقه على "المزهر" الذى ضم خمسين نوعا من أنواع موضوعات اللغة، دليلا على القدرة العظيمة للسيوطى ونشاطه فى التأليف[٣].

وقد درس الشكعة مصادر المزهر مؤكدا غزارتها وبراعة السيوطى فى استعمالها، وقام بتسجيل ثبت بهذه المصادر التى اعتمد عليها السيوطى فى الجزء الأول من هذا الكتاب[٤].

وقد لاحظ الشكعة تعدد مصادر السيوطى غير مقصورة على

(١) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ١١٤.
(٢) المرجع السابق، ١١٤-١١٥.
(٣) الشكعة، المرجع السابق، ١٦٧-١٦٩.
(٤) المرجع السابق، ١٦٩-١٧٢.

كتب اللغة، وإنما شملت كتب الأدب، والتاريخ والطبقات والفقه والأمثال والنوادر مما يوضح استفاضته فى المادة العلمية[1]. وتتضح هذه النزعة الموسوعية للسيوطى فى تخصيصه سبعة أنوع فى غير موضوعات اللغة فى المزهر خاصة بمعرفة الطبقات والحفاظ والثقات والضعفاء، ومعرفة الأسماء والكنى والألقاب والأنساب ومعرفة المؤتلف والمختلف، ومعرفة المتفق والمفترق، ومعرفة المواليد والوفيات - لاثنين وخمسين عالما من علماء اللغة -، ومعرفة الشعر والشعراء[2].

ومن أهم مؤلفات السيوطى، اللغوية، كذلك، همع الهوامع فى جمع الجوامع "وهو شرح لكتاب آخر مختصر كتبه فى النحو وهو "جمع الجوامع". ومن كتبه، كذلك، "الاقتراح فى أصول النحو" وهو من أهم كتبه فى النحو واللغة[3]. أما كتابه "الأشباه والنظائر" فهو كتاب جليل فى كليات النحو طبق فيه السيوطى عليها منهج الفقهاء فى كتاباتهم عن الأشباه والنظائر فى الفقه[4].

وقد أشار الشكعة إلى بعض مصادره[5] مؤكدا قيمة الكتاب

---

(١) المرجع السابق، ١٧٢.

(٢) فصلها الشكعة من ص ١٩٦-٢٠٨.

(٣) للتفصيل المرجع السابق، من ص ٢١٣ إلى ص ٢٣٦.

(٤) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر ، ١١٩-١٢٠.

(٥) الشكعة، المرجع السابق، ٢٤١-٢٤٢.

من حيث اعتماد السيوطى فيه، كالمزهر، علـــى الكثـــير مـــن المصادر الأصيلة التى توضح ما كان للمكتبة العربية مـــن دور هام فى بناء الثقافة بمعناها الواسع. والأشباه والنظائر "مســتودع ضخم لأكثر موضوعات النحو العربى فى نطاق من المنهجيـــة السليمة وسياج من الربط والتساوق بين موضوعات دقيقة"[١].

ويورد محمود رزق سليم ثبتا بمؤلفات السيوطى فى العلـــوم العربية ويذكر أن الأشباه والنظائر وهو مرتب على سبعة فنـون لكل منها مقدمة خاصة كأنه سبعة كتب[٢] ممـــا يؤكـد الطـــابع الموسوعى فى تأليفه.

ويمكننا أن نقول مع محمد زغلول سلام إن الاهتمام بعلـــوم اللغة فى العصر المملوكى كان واضحا، وكان الهدف منه خدمة علوم القرآن والحديث والتفسير[٣]. مما يؤكد، ما أشرنا إليه، من ارتباط الدراسات اللغوية بالدراسات القرآنية والحديثيـــة، وقـد اشتهر علماء اللغة فى هذا العصر بمؤلفاتهم وشروحهم لكتـــب النحو وجمعهم لتراث اللغة، وعمل المعاجم[٤]. أما فيما يتعلـــق

---

(١) الشكعة، المرجع السابق، ٢٤٤.

(٢) عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ٣٦٧.

(٣) الأدب فى العصر المملوكى، ج١، ٢٠٤ وقد تتبع جهود اللغويين والنحويين فى مصر من ص ٢٠٤-٢١٤.

(٤) محمد زغلول سلام، المرجع السابق، ج٤، ٢٦٢.

بعلم القراءات فقد ذاعت قراءة ورش (عثمان بن سعيد) ، المتوفى بمصر سنة ١٩٧هـ، عن نافع فى أهل المغرب، وكان ورش عالما بالعربية، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية[١]. وقد كان لمصر شهرتها فى هذا العلم منذ منتصف القرن الثانى الهجرى على يد ورش الذى ولد بمصر سنة ١١٦هـ وعنه وعن تلميذه أبى يعقوب الأزرق الذى توفى بمصر حوالى ٢٤٠هـ أخذ القراء فى العصور التالية كالشاطبى فى العصر الأيوبى وبعض القراء المشهورين فى العصر المملوكى[٢]. وقد رجع عبد اللطيف حمزة إلى طاش كبرى زاده فى تعريفه لعلم القراءات فى كتابه "مفتاح السعادة" حيث قال : "هو علم يبحث فى صور نظم كلام الله تعالى، من حيث وجوه الاختلافات المتواترة، وهو يعتمد على العلوم العربية التى تعين على تحصيل هذه الملكة. وفائدة ذلك صون كلام الله تعالى من التغيير والتحريف، وقد يبحث أيضا فى الاختلافات غير المتواترة مما وصل إلى حد الشهرة"[٣].

وقد أحصى السيوطى ١٣٥ قارئا ممن تصدروا للقراءات

---

(١) شوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ١١٤.

(٢) عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية، من ٢٣١-٢٣٥.

(٣) المرجع السابق، ٢٣١.

بمصر حتى زمنه[1] ومن أعلامهم، كما ذكرنا الشاطبى المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٩٥هـ، وقد شرح السيوطى قصيدته الشاطبية[2]. وقد لمع فى علم التفسير طائفة جليلة من العلماء كابن المنير (أحمد بن محمد الإسكندرى) المتوفى سنة ٦٨٣هـ، وقد انتقد آراء الزمخشرى الاعتزالية التى وردت فى تفسيره، وحاول نقضها بما يتفق وآراء أهل السنة وذلك فى كتابه (الانتصاف من الكشاف) [3]. وقد اتصل علم التفسير فى مصر بالدراسات النحوية، ومثال ذلك أبو جعفر النحاس، وهو نحوى ومن مؤلفاته تفسير القرآن الكريم[4].

وللسيوطى مؤلفات فى التفسير، منها تفسير كبير يسمى (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) هذا إلى جانب تفسير الجلالين، وهو التفسير الذى بدأه جلال الدين المحلى وأتمه السيوطى، وهو أشهر التفاسير تداولا بين المسلمين المعاصرين[5]. وقد أورد الشكعة قائمة بمؤلفات السيوطى فى علوم القرآن والتفسير[6]،

---

(١) شوقى ضيف، المرجع السابق، ١٢٩ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق، ١٢٩-١٣٠.

(٣) المرجع السابق، ١٣١-١٣٢.

(٤) عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ١٩٠-١٩١.

(٥) الشكعة، المرجع السابق، ١٢٨.

(٦) المرجع السابق، ١٢٨، ١٢٩، وأورد محمود رزق سليم قائمة مؤلفاته فيها، راجعه عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ١٤٠-١٤٢.

ومن أهمها "الإتقان فى علوم القرآن" وهو كتاب عمدة فى علوم القرآن، وصفه محققه محمد "أبو" الفضل إبراهيم بأنه "الحلقة الذهبية فى سلسلة كتب الدراسات القرآنية، وأحسنها تصنيفا وتأليفا، وأكثرها استيعابا وشمولا، جمع فيه من أشتات الفوائد، ومنثور المسائل ما لم يجتمع فى كتاب[1].

وقد ذكر السيوطى فهرسا بموضوعات كتاب الإتقان تدور حول ثمانين نوعا تتناول شتى المعارف التى تدور حول القرآن الكريم . ويعد هذا الكتاب إضافة إلى كتابين صنفا مستقلين فى هذا الفن هما : "البرهان فى علم القرآن" للزركشى من علماء القرن الثامن، وموضوعات الإتقان ضعف موضوعات البرهان. أما الكتاب الثانى وهو "مواقع العلوم من مواقع النجوم" لجلال الدين البلقينى (عبد الرحمن بن عمر) أحد علماء الحديث بمصر (المتوفى سنة ٨٢٤هـ) فقد استدرك عليه السيوطى كثيرا من المسائل التى لم يستوفها ولم يسبقه أحد فى الوقوف عليها، وقد ذكر السيوطى هذا الكتاب ضمن مراجعه فى مقدمة كتاب "الإتقان" فى إشارة مبكرة لتوثيق مصادر الكتاب فى التراث العربى، وقد كانت مصادره فى هذا الكتاب أكثر من مائتى

(١) مقدمة تحقيق محمد "أبو الفضل إبراهيم" لكتاب "الإتقان فى علوم القرآن" للسيوطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤، ج١، ص٨.

كتاب[1]، فى دلالة واضحة على غزارة ثقافة السيوطى، وأمانتــه العلمية، ورد مؤلفاته إلى أصولها، وذكر مراجعه مما يؤكـــد أن التأليف العربى، فى مراحله المبكرة، كان صورة معبرة أوضـــح تعبير عن سيادة القيم العلمية الأصيلة، وآدابها العظيمة وقد ذكر السيوطى، فى غير الإتقان، مراجعه تأكيدا لذلك.

وقد عد كتاب الإتقان للتفسير كعلم أصول الفقه للفقه، دلالـــة على قيمته العظيمة فى ميدانه. أما قيمة السيوطى فـــى علــوم التفسير فيمكن القول إنه هو الذى أحيا علم التفسير فـــى الـــدر المنثور على حد قول أحد العلماء[2].

أما علم الحديث فمن أهم علمائه بمصر الحافظ ابـــن حجــر العسقلانى (المتوفى سنة ٨٥٢هـ) يقول السيوطى عنه : "انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها، فلم يكن فــى عصره حافظ سواه". ولابن حجر مؤلفات كثيرة منـــها : "فتــح البارى فى شرح البخارى" و"تعليق التعليق" و"تهذيب التـــهذيب" و"لسان الميزان" و"الإصابة فى تمييز الصحابة" وغيرها[3].

---

(١) راجع التفاصيل كتاب : الحافظ جلال الدين السيوطى، إمام المجتـــهدين والمجدديـــن فىعصره، تأليف عبد الحفيظ فرغلى القرنى، الهيئـــة المصريـــة العامـــة للكتـــاب، القاهرة، ١٩٩٠، من ص ١٠٨-١١٢.

(٢) راجعه عبد الحفيظ فرغلى، المرجع السابق، ١٠٠.

(٣) السيوطى، حسن المحاضرة، ج١، ٣٦٣ وللتفاصيل راجع ص ٣٦٤-٣٦٦ وخصـــه محمود رزق بترجمة ضافية، ذاكرا أن عدد مؤلفاته قد زاد عن المائة والخمســـين=

ويمكن القول ، مع محمود رزق سليم، إن العصر المملوكي من العصور الذهبية فى تاريخ علم الحديث ومصطلحه ونقده، وقد اعتنى فيه بالحديث عناية كبيرة وكان لهذه العناية أثر بارز فى ميدان التأليف. وقد عقد السيوطى فى "حسن المحاضرة" فصلا للحفاظ، دلالة على كثرة عددهم فى مصر[1]. والحافظ "هو الذى أحاط بما لا يقل عن مائة ألف حديث متنا وسندا . يقول التهانوى : الحافظ "هو الذى أحاط علمه بمائة ألف حديث متنا وسندا، وأحوال رواته جرحا وتعديلا وتاريخا"[2]. واهم حافظ فى مصر بعد ابن حجر هو السيوطى، وقد ألف فى علوم الحديث ما يزيد عن مائة كتاب ذكر معظمها فى "حسن المحاضرة"[3]. والسيوطى إمام الحديث فى عصره، وكان له دور كبير فى جمع الحديث تحرى فيه الدقة التى توخاها علماء الحديث. وكتاب السيوطى "جمع الجوامع" يعد نموذجا فريدا فى

= وقد درس بعضها كفتح البارى والإصابة كما ذكر ثبتا ببعضها، ودرس بعض الجوانب الأدبية فى ديوان شعره، راجعه عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، من ص ٣٣٥ إلى ص ٣٥٤.

(١) محمود رزق سليم، المرجع السابق، المجلد الثالث، ١٤٢-١٤٣، وقد ذكر أهم المؤلفات فى الحديث ١٤٣-١٤٦.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون ، التهانوى، (محمد على الفاروقى) تحقيق لطفى عبد البديع وعبد النعيم محمد حسنين/ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣، ج١، ٣٧ .

(٣) حسن المحاضرة، ج١، ٣٤٠-٣٤٢. وعبد الحفيظ فرغلى، المرجع السابق، ١٤٨، والشكعة، المرجع السابق، ١٢٩-١٣٢.

السيوطى "جمع الجوامع" يعد نموذجا فريدا فى ذلك فهو، على حد تعبير عبد الحليم محمود، من الأعمال العلمية الشامخة، فقد جمع السيوطى فى القسم الأول منه عشرات الآلاف من الأحاديث مرتبة على حسب الحروف الأبجدية، كما جعل القسم الثانى، الخاص بأفعال الرسول -ص- على حسب المسانيد، مما جعل هذا الكتاب الذى يسمى أيضا، بالجامع الكبير، أكبر خدمة للسنة عن طريق حصرها، والإحاطة بها، وقد حقق السيوطى هذا الهدف وحده، وهذا العمل الذى قام به ليس بوسع جهود متضافرة أن تقوم به[1]. وقد رجع السيوطى فى كتابه هذا إلى كتب لا حصر لها[2]، مما يؤكد الطابع العلمى الأصيل لمؤلفات السيوطى، علامة على مؤلفات عصره، ويؤكد كذلك الطابع الموسوعى لهذا المؤلفات، إذ يعد الجامع الكبير موسوعة للسنة النبوية، لا غنى عنه لكل من له صلة بعلم الحديث، إضافة إلى أنه المعجم الوحيد المتداول بين المسلمين حتى الآن، يعرفون به أحاديث نبيهم رواية ودراية[3]، وهو دائرة معارف كبرى فى الحديث مع رواياته وأسانيده، هذا إلى جانب شروحه على موطأ

---

(١) عبد الحفيظ فرغلى ، الحافظ جلال الدين السيوطى، ص ١٥٥، نقلا عن عبد الحليم محمود.

(٢) راجع التفاصيل، عبد الحفيظ فرغلى، المرجع السابق، ١٥٣-١٥٧.

(٣) المرجع السابق، وقد رجع إلى الكتانى، راجعه ص ١٥٨.

مالك وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبـــى داود وابـــن ماجة إلى شروح أخرى كثيرة[1]، مما يعد تتويجا لجهود علمـــاء مصر فى "البيئة التى تعنى بعلوم الدين" على حد تعبـــير عبـــد اللطيف حمزة، الذى تتبع حركة الحديث فى مصر منذ أن ظـــهر بها فى القرن الثالث الهجرى عالم كبـــير مـــن علمائـــه هـــو الطحاوى، المصرى الحنفى وكان من العلماء المجتـــهدين فـــى الحديث، وهو من الأئمة الحفاظ له مؤلفات كثيرة، كمعانى الآثار وأحكام القرآن والتاريخ الكبير وغيرها[2]. واشتهر من حفـــاظ الحديث بمصر فى العصـــر المملوكـــى ابـــن دقيـــق العيـــد،(ت٧٠٢هـــ) الفقيه المجدد الذى انتهت إليه رياســـة العلـــم فـــى زمانه. وقد نشأ بقوص وهى أشهر مدن الصعيد وقتذاك، وكـــان بارعا فى علم الحديث لا يجاريه أحد، وقد كان صالحا متصوفـــا أديبا، وكان مجدد المائة السابعة، وأستاذ زمانه علما ودينا، ولـــه مصنفات كثيرة منها، الإلمام فى الحديث وشرحه، وهو آية فـــى حسن الاستنباط للأحكام والمعانى من السنة والكتـــاب، وكتابـــه شرح العمدة، والاقتراح فى مصطلح الحديث، وشرح العنـــوان فى أصول الفقه، وله ديون شعر، وديوان خطب[3]. وقد خصـــه

---

(١) شوقى ضيف، المرجع السابق، ١٣٥.

(٢) حسن المحاضرة، ج١، ٣٥٠، وعبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ١٧٥-١٧٦.

(٣) عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ١٧٨-١٧٩.

السيوطى فى "حسن المحاضرة" بترجمة ضافية، أكبره فيها غاية الإكبار ووصفه بأنه كان للعلوم جامعا وفى فنونها بارعا[١]. وقد خصه محمود رزق سليم، كذلك، بترجمة ضافية، عرف فيها بعض مؤلفاته، وأهمها إحكام الأحكام والفتاوى، كما تناول الجانب الأدبى له[٢].

ومن حفاظ الحديث فىالعصر المملوكى، كذلك، تقى الدين السبكى (ت٧٥٦هـ) وقد روى الصلاح الصفدى أن الناس قد قالوا ما جاء بعد الغزالى مثله[٣]. ومن أهم مصنفاته كتاب "الدر النظيم فى تفسير القرآن العظيم" و "الابتهاج فى شرح المنهاج" وكثير من المؤلفات فى الفقه والتفسير واللغة والنحو مما أربى على خمسين مؤلفا[٤]، ولا غرو فهو الإمام الفقيه المحدث الحافظ المفسر الأصولى المتكلم النحوى[٥] اللغوى الأديب الجدلى الخلافى النظار شيخ الإسلام بقية المجتهدين، المجتهد المطلق،

---

(١) راجعه ، ج١، من ص ٣١٧-٣٢٠.

(٢) محمود رزق سليم، المرجع السابق، مجلد ٣، ٢٠٩-٢١٩.

وقد حقق على صافى حسين ديوانه، ودرس شعره، فى كتاب هام بعنوان : : "ابن دقيق العيد حياته وديوانه"، نشر بدار المعارف، وتتبع فيه المؤلف الجانب الادبى من حياته.

(٣) راجع ترجمة السيوطى له، حسن المحاضرة، ج١، ٣٢١ وما بعدها.

(٤) عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية، ص١٨٠.

(٥) السيوطى، حسن المحاضرة، ج١، ٣٢١.

وقد رثاه ابن نباته شاعر العصر المملوكى بقصيدة رائعة[1].

وقد وصفه محمود رزق سليم بقوله : "علم من أعلام مصر، وأحد أئمة العصر جهبذ فقيه، وفاضل نبيه اجتمع فيه الذكاء والزهادة، والورع والعبادة، كما اجتمع العلم والأدب"[2]. وقد اعتمد سليم فى ترجمته على ابنه تاج الدين السبكى فى طبقاته الكبرى. معرفا ببعض مؤلفاته وأدبه[3]. وممن يفخر بهم العصر المملوكى من الحفاظ الفقهاء شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى[4] مجدد المائة الثامنة[*] (ت ٨٠٥هـ)، وقد برع فى الفقه والحديث والأصول وله فيها مؤلفات منها حواشى الروضة، وشرح البخارى، وشرح الترمذى، وحواشى الكشاف[5].

ويعنى هذا التراث المصرى الزاخر فى علوم الحديث أن الحديث كان مرتبطا أشد الارتباط بالعلوم العربية الأخرى

---

(١) المصدر السابق، ٣٢٣-٣٢٦.

(٢) عصر سلاطين المماليك، مج٣، ٢٧٧.

(٣) المرجع السابق، ٢٧٧-٢٨٩.

(٤) راجعه ، عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ١٨٠ وما بعدها.

(*) استند السيوطى إلى حديث رسول الله -ص- إن الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" وبنى أمين الخولى كتابه "المجددون فى الإسلام" على أساس كتاب للسيوطى هو "التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة" وقد قمت بدراسة هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابى عن مقامات السيوطى.

(٥) حسن المحاضرة، ج١، ٣٢٩.

كالتفسير والفقه والنحو واللغة والقراءات ويعنى، وهو الأهم، أن حفاظ مصر وعلماءها قد تخصصوا فى علم الحديث، مع اتصاله بغيره من العلوم، حتى أوشكوا أن يستقلوا به استقلالا ظـــاهرا عن الفقه وغيره من العلوم الأخرى[1].

وقد تتبع عبد اللطيف حمزة الحركة الفقهية بمصر[2]. وقـــد عرفت مذهب الإمام مالك حتى جاءها الشافعى حوالى ١٩٩هـــ فاكتمل مذهبه الفقهى فى مصر، وحمله عنه تلاميذه من أبنائـــها، ونشروه فى العالم الإسلامى، وأهمهم البويطـــى (ت٢٣١هــــ) والمزنى (ت ٢٦٤هــ) [3].

وقد أحصى السيوطى فقهاء مصر منذ الفتح العربـــى إلـــى عصره[4]، وكان ما أحصاه فى العصر المملوكى أكثر من مائـــة فقيه "لأكثرهم مصنفات وشروح على أمهات كتب الفقه الشافعى، ومن أهمهم ابن دقيق العيد الذى مر ذكره من حفاظ الحديث وله مصنفات كثيرة فى الفقه، وكذلك تقى الدين السبكى وله مصنفات كثيرة فى الفقه أيضا، وشروح لكتبه الكبرى[5]، وقـــد اســـتطاع

---

(١) عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ١٨١.

(٢) راجعها، الحركة الفكرية، من ص ١٩٤- ص٢٠٤.

(٣) المرجع السابق، ١٩٦، وشوقى ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، ١٤٣-١٤٤.

(٤) راجعه حسن المحاضرة، الجزء الأول من ص ٣٩٨ إلى ص ٤٨٤.

(٥) شوقى ضيف، المرجع السابق، ١٤٦.

كثير من فقهاء المذهب الشافعي في العصر المملوكي في مصر أن يصلوا إلى درجة الاجتهاد[١]. وكان السيوطي الخاتم الحقيقي لهم[٢]، وقد ذكر مؤلفاته في الفقه في حسن المحاضرة[٣]. هذا وقد ساق محمود رزق سليم ثبتا بأهم كتب المذاهب الأربعة في مصر[٤]. وأنجبت مصر، أيضا، إماما حنفيا كبير هو الطحاوى (أبو جعفر أحمد بن محمد المتوفى سنة ٣٢١هـ)، الذى مر ذكره من علماء الحديث، وإليه انتهت رياسة الحنفية بمصر، وتعد كتبه مراجع أساسية في المذهب الحنفي[٥].

وقد كان الليث بن سعد (المتوفى سنة ١٧٥هـ) إمام المذهب المالكي في مصر، وهو فقيه مصري كبير عاصر الإمام مالك، وفيه يقول الشافعي : "الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به"، يعني أن تلاميذه المصريين لم يحملوا عنه مذهبه[٦].

لقد كان التأليف الموسوعي في مصر سمة غالبة على كتاب

---

(١) عبد اللطيف حمزة، المرجع السابق، ٢٠١.
(٢) شوقي ضيف، المرجع السابق، ١٤٧.
(٣) ج١، ٣٤٢.
(٤) راجعها، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ١٣١-١٣٩.
(٥) شوقي ضيف، المرجع السابق، ١٣٦.
(٦) المرجع السابق، ١٣٨-١٣٩.

العصر المملوكى، وإن لم يعبر عن مصطلح الموسوعات بمعنى "دوائر المعارف" بالمعنى السائد الآن فى اللغات الأوروبية، بـــل كان هذا التأليف الموسوعى فى التراث العربى مرتبطا بمعنـــــى "الأدب" ليس بتحديده الحرفي، ولكن بمعناه المعبر عن اتســـاع الثقافة العربية، وأخذ الأديب من كل علم بطرف بحيث تمكنـــه المعارف المتنوعة التى يحصلها من توفير الثقافة اللازمـــة لـــه لكى يكون أديبا متمكنا من أدوات عمله، ومن هنا جاء المعنـــى الموسوعى للتأليف فى الفكر العربى[1]. فنهاية الأرب للنويـرى، مثلا، تقدم كل المعارف اللازمـــة للكـــاتب[2]، وكذلـــك صبـــح الأعشى. والحق أن هذه الطبيعة الموسوعية للتـــأليف العربـــى ليست مرادفة، كما قيل ظلما، للفوضى الفكرية، أو افتقاد المنهج العلمى للإنتاج الفكرى. وقد اتهم الجاحظ بذلك، وهو منه بـــراء، إذ جاءت كتاباته الموسوعية متسقة مع غزارة ثقافته التى انثالت عليه انثيالا، إذا استخدمنا تعبيره، ففاضت بها كتبه، ولـــم يعـــن تنوعها وتعددها وأسلوب عرضها الاستطرادى افتقاده للوحـــدة الكلية المنظمة لمنهجه الفكرى الذى انتظم مؤلفاته على تعددهـــا وتنوعها.

---

(١) The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Edited by A number of Leading Orientalists, Under the patronage of the International Union of Academies, Leiden, E.J. Brill, 1991, Volume VI, p. 903.

(٢) Ibid, 906.

وقد نهج مؤلفو الموسوعات فى العصـــر المملوكـــى نـــهجا تخلصوا فيه من التوسع الشديد الذى وسم الموسوعات العربيـــة السابقة، فبنوا موسوعاتهم على التنظيم الدقيق والتقســـيم الأدق بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، على حد تعبير عبد اللطيـف حمزة[١].

فالمستطرف من كل فن مستظرف، مثلا، موسوعة مصريـــة شهيرة كتبها الأبشيهى (شهاب الدين محمد بن أحمد أبى الفتـــح، توفى بعد سنة ٨٥٠هـ) وقد اشتمل هذا الكتاب علـــى أربعـــة وثمانين بابا شملت أطرافا متباينة من فنـــون الأدب والحكمـــة والقول لم تعن موسوعيتها تشتت الأفكار لأن مؤلفه كان يـــهدف إلى غاية معينة وهى تنمية الفضائل الإنسانية فى النفوس وقـــد تضاءلت فى عصره، فرتب الابشيهى الكثير مما استهدفه ضمن أبواب شاملة لجوامع الكلم[٢]، وقد جعل العودة إلـــى النمـــوذج الأمثل للإسلام فى عصوره الأولى هى الحل الناجع لما قد حـــل بالعالم الإسلامى من اضطراب[٣]. والكتاب عرض لكثير مـــن

---

(١) القلقشندى فى كتابه "صبح الأعشى"، ١٨، ١٩.

(٢) مقدمة نشرة مفيد محمد قميحة لكتاب "المستطرف فى كل فن مستظرف" للأبشـــيهى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص٥.

(٣) The Encyclopaedia of Islam, Volume VI, p. 904.

الأخبار والطرائف الأدبية التى انتقاها من الكتب الكثيرة، وقد حوى كثيرا من الأمثال الأدبية العربية، والعامية المصرية[1].

لقد أحيا علماء مصر، بتلك الموسوعات، الثقافة العربية الإسلامية، وسلكوا فى كتابتها طرقا جديدة[2]. ومن هذا المنطلق يتضح المغزى من تأليف الموسوعات فى العصر المملوكى، وتصحح أخطاء من مثل ما وقع فيه بروكلمان من إطلاقه أحكاما جائرة على الإنجازات الثقافية والعلمية والفكرية للتراث العربى فى مصر الإسلامية، إذ لم يوفق بروكلمان فى فهم الأبعاد الحضارية والثقافية العربية التى أنتجت ظاهرة التأليف الموسوعى فى مصر فى العصر المملوكى، وأدى ذلك إلى ظلمه، كذلك، فى حكمه على الإنجاز المعمارى الرائع للمماليك فى مصر والشام، الذى كان امتدادا لإنجاز الأيوبيين فيهما إذ رأى أن حكام هاتين الدولتين "الأيوبية والمملوكية – حتى أفضلهم – لم يكن اهتمامهم الأول منصرفا إلا للجيش ولإقامة المبانى الفخمة"[3].

وقد أشرنا إلى أهم حقائق سلبيات وإيجابيات العصر

---

(١) محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى، ج٤، ٣٥٨.
(٢) عبد اللطيف حمزة، القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى، ١٤.
(٣) تاريخ الأدب العربى، نشرة محمود حجازى، القسم السادس، ص١١.

المملوكى فى مصر، ورأينا من إيجابياته هذه العمارة التى تـدل على حضارة زاهرة، لم يرها بروكلمان إلا مظهرا من مظـاهر رخاء الدولة، وإن كان هذا الرخاء قد قام، فى رأيه، على سـوء الإدارة، والاهتمام بجباية الضرائب مما أدى، حسب رأيه أيضا، إلى الانهيار الحضارى السريع للدولة المملوكية البرجية، وإلـى إصابة الطموح الأدبى بالشلل، وفى خضم التوتر السياسى القـائم على الدسائس فى العصر المملوكى تصور بروكلمان أنه كـان من النادر فى ظل تلك الظروف أن يتاح لإنسان معروف فـى الحياة العامة التفرغ الضرورى للعمل العقلى الذى يمكنـه مـن إنجاز كبير فى التأليف[1].

وضرب مثلا غمز به فقهاء السنة واصفا إيـاهم بـالتزمت، وهو المحنة التى دبروها لابن تيمية الحنبلى لاختلافه معهم فـى بعض آرائهم المذهبية[2]، ثم ختم هذه الافتراءات التى لا تعـدو، حالة صحتها، أن تكون تعميما مخلا لأحداث خاصـة لا تمثـل ظاهرة مطردة، بأن جعل مصر والشام، وقـد تبوأتـا مركـز الصدارة للثقافة والحضارة الإسلامية بعد أن أطاح المغول بدولة الخلافة العباسية فى بغداد، ومنى الشرق الأوسط بضربات عنيفة

---

(١) نفس المرجع، ص ١١، ١٢.

(٢) المرجع السابق، ١٢.

نتيجة تفكك الخلافة العباسية، قبل عصف المغول بما بقى منـــها من كيان هرم، على حد تعبيره، وفقدت إيران والعراق، وكانتـــا مركز حضارة مادية، وثقافة إسلامية، مركز الصدارة لتتبـــوأه مصر والشام، لكنهما، فى رأى بروكلمان، لـــم تتيحـــا للـــتراث العربى إلا موئلا متواضعا(١). والحق أننا لسنا بصدد تفنيد هـــذه الآراء المجحفة جميعا لما بيناه من أن هذا العصر فـــى تمثيلـــه للتراث العربى الإسلامى لم يكن عصـــر انحطـــاط ثقـــافى أو حضارى، وإن شابته الشوائب السياسية.

لقد أسهم العلماء والأدباء من أبناء مصر فى الثقافة العربيـــة، وقد ظلم بعض مؤرخى الأدب والتراث العربى، خصوصا فـــى العصر المملوكى، الإنجاز العقلى والأدبى لهذا العصـــر الـــذى وصفه شوقى ضيف بقوله إن مصر "لم تشـــهد حقبـــا علميـــة مزدهرة بمقدار ما شهدت فى زمـــن الممـــاليك"(٢). ورأى بعـــد درس مستفيض لمظاهر الحضارة والثقافة والفكر والفن والأدب فى مصر العربية على امتداد عصورها، أن مصر فى عصورها الإسلامية كانت ملاذا للحضارة العربية ، وحامية لكل ما اتصـل

---

(١) نفسه، ٨.

(٢) راجعه، عصر الدول والإمارات، مصر، ٨٦، ٨٧.

بها من فكر وعلوم وآداب[١].

إن خطورة مثل آراء بروكلمان الظالمة للتراث وللحضـــــارة العربية الإسلامية لا تكمن فى ذات هذه الآراء، إذ يمكن تفنيدهـا حجة بحجة ورأيا برأى، لبيان وجوه الخطل والزيف فيها، ولكن خطورة هذه الآراء تكمن فى استخدامها، أحيانا، لغير وجه العلم والحقيقة بهدف سلب التراث العربى الإســلامى مــن مقوماتــه الحضارية العظيمة، وانتقاص دور أبنائه ممن لهم إسهام كبـــير فى نهضة الحضارة الإنسانية.

لقد نقول مع جمال حمدان إن دور مصر الحضارى لم يختف عبر العصور، وإن اختلف من عصر إلى عصر[٢]، وأن مصــو الأيوبية المملوكية طفرت إلى المقدمة واستعادت قيــادة الدولــة العربية الإسلامية، وأصبحت قطب القوة والحضارة والتوجيــه فيها[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٨.

(٢) شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان، عالم الكتب، القـــاهرة، المجلـد الثــانى،

(٣) نفس المرجع، ٦٢٦.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

- **الأبشيهى، (شهاب الدين محمد)**، المستطرف فى كل فن مستظرف، نشرة مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط أولى، بيروت، ١٩٩٣.
- **ابن إياس (محمد بن أحمد)**، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
- **ابن تغرى بردى(جمال الدين أبو المحاسن)**، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، د.ت.
- **التهانوى (محمد على الفاروقى)**، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفى عبد البديع، وعبد النعيم محمد حسنين، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.
- **ابن خلدون**، المقدمة فى تحقيق على عبد الواحد وافى، لجنة البيان العربى، ط أولى، القاهرة، ١٩٦٢، ٤ أجزاء.

- **ابن خلكان**، وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمـــان، تحقيـــق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت.

- **السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)**، الضـــوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

- **ابن سعيد**، النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة، القسـم الخاص بمصر من كتاب "المغرب فـــى حلـــى المغـــرب"، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب المصرية، ط ثانية، القاهرة، ٢٠٠٠.

السيوطى، جلال الدين،

– الإتقان فى علوم القرآن، تحقيق محمد "أبو" الفضل إبراهيـم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤.

– حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبـو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البـــابى الحلبى، ط أولى، القاهرة، ١٩٦٧ (جزآن).

- **العمرى، ابن فضل الله**، مســـالك الأبصـــار فـــى ممـــالك الأمصار، القسم السادس، تحقيق أيمن فؤاد، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٨٥.

- وقد حققت دوروتيا كرافولسكى نفس القسم السادس بعنوان "دولة المماليك الأولى" المركز الإسـلامى للبحـوث، ط أولى، بيروت ١٩٨٦.

- **القلقشندى (أحمد بن على)**، صبح الأعشى فـى صناعـة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الفكـر، ط أولى، بيروت، ١٩٨٧، ١٤ جزءا.

- **المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) :**

- السلوك لمعرفة دول الملوك، نشرة محمد مصطفى زيـادة، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٤.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت. أربعة أجزاء فى مجلدين.

- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهايـة الأرب فى فنون الأدب، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٣.

<u>ثانيا : المراجع</u>

- **الأهوانى (عبد العزيز)** ، ابن سناء الملك، ومشـكلة العقـم والابتكار فى الشعر، الأنجلو، القاهرة، ١٩٦٢.

- **بروكلمان (كارل)**، تاريخ الأدب العربى، ترجمة محمـــود فهمى حجازى، وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتـــاب، القاهرة، نشر القسم الأول منه سنة ١٩٩٣، ورجعنا إليـــه وإلى القسم السادس المنشور سنة ١٩٩٥.
- **حسن (زكى محمد)**، فنون الإسلام، دار الرائـــد العربـــى، بيروت، ١٩٨١.

حسين (محمد كامل):

- فى الأدب المصرى من الفتـــح الإســـلامى إلـــى دخـــول الفاطميين، مطبعة الاعتماد، القاهرة، د.ت.
- فى أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربـــــى، ط ثانيـــة، القاهرة، ١٩٦٣.
- **حمدان (جمال)**، شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكـــان، عالم الكتب، القاهرةــ د.ت، أربعة مجلدات.

حمزة (عبد اللطيف) :

- الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الاول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ثانية، القـــاهرة، ١٩٩٩.

- القلقشندى فى كتابه "صبح الأعشى"، العدد ١٢ من سلسلة "أعلام العرب"، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت.

- **زقلمة (أنور)**، المماليك فى مصر، مكتبة مدبولى، ط أولى، القاهرة، ١٩٩٥.

- **سرور (محمد جمال الدين)**، الدولة الفاطمية فى مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٩.

- **سلام (محمد زغلول)**، الأدب فى العصر المملوكى، منشأة المعارف، الإسكندرية، أربعة أجزاء. نشر الجزء الرابع منها بعنوان فرعى هو "دولة الشراكسة" ط أولى، ١٩٩٩، والأول بعنوان فرعى "مدخل فى العصر واتجاهاته الفكرية والفنية، بدون تاريخ، والثانى بعنوان فرعى فنون النثر وأعيان الكتاب، بدون تاريخ. والثالث بعنوان فرعى (الشعر والشعراء) بدون تاريخ أيضا.

- **سليم (محمود رزق)**، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، (٨ مجلدات)، نشر المجلد الأول منها سنة ١٩٤٧، مكتبة الآداب، القاهرة، وقد رجعت إليه، وإلى المجلد الثانى الصادر فى نفس السنة، وتناولا الجانب

التاريخى، وإلى الثالث الصادر سنة ١٩٤٩ وتناول الحركة العلمية، والخامس الصادر سنة ١٩٥٦ وتناول النثر الفنى.

- **الشكعة (مصطفى)**، جلال الدين السيوطى، مسيرته العلمية، ومباحثه اللغوية، البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٨١.
- **ضيف (شوقى)**، عصر الدول والإمارات، مصر – الشـــام، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

عاشور (سعيد عبد الفتاح) :

- الظاهر بيبرس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القـــاهرة، ٢٠٠١.
- العصر المماليكى فى مصر والشام، دار النهضة العربيـــة، ط أولى، القاهرة، ١٩٦٥.
- عنان (محمد عبدالله)، مؤرخو مصر الإسلامية، ومصـــادر التاريخ المصرى، مؤسسة مختار، القاهرة، د.ت.

الغبارى (عوض)

- مقامات السيوطى، دراسة فى فن المقامة المصرية، قيـــد النشر.

- نقد الشعر فى مصر الإسلامية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦.
- بحث فى تصوف ابن الفارض فى التائية الكبرى نشر بالدورية العلمية لجامعة أوساكا باليابان باللغة الإنجليزية بعنوان : "Ibn al-Farid's Mysticism in the Greater ode Rhyming in Ta" In "Journal of Osaka University of Foreign Studies", Volume 21, 1999.

قاسم (عبده)

- فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط أولى، القاهرة، ٢٠٠١.
- ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، العدد ١٤٩، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مايو، ١٩٩٠.
- **القرنى (عبد الحفيظ فرغلى)**، الحافظ جلال الدين السيوطى إمام المجتهدين والمجددين فى عصره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠.
- **كيلانى (محمد سيد)**، الأدب المصرى فى ظل الحكم

العثمانى، دار الفرجانى، القاهرة، طرابلس، لندن، ١٩٨٤.

- **محمد جمال الدين (أمنية)**، النويرى وكتابه نهاية الأرب فى فنون الأدب، دار ثابت، ط أولى، القاهرة، ١٩٨٤.

- **موير (السير وليم)**، تاريخ دولة المماليك فى مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولـــــى ، ط أولـــى، القاهرة، ١٩٩٥.

- **نصار (حسين)**، المعجم العربى، نشأته وتطـــوره، مكتبـــة مصر، ط ثانية، القاهرة، ١٩٦٨، جزآن.

- The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Edited by A number of Leading Orientalists, Under the patronage of the International Union of Academies, Leiden, E.J. Brill, Volume VI, 1991.